إياد الداود

فنّ التقصي

الفيلم الوثائقي التحقيقي

معهد
الجزيرة للإعلام

إياد الداود

فنّ التقصي

الفيلم الوثائقي التحقيقي

معهد
الجزيرة للإعلام

معهد
الجزيرة للإعلام

جميع الحقوق محفوظة ©
معهد الجزيرة للإعلام 2019

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 2019/71
ISBN: 978/9927/4065/1/5

المخرج والمنتج إياد الداود

يدرب في معهد الجزيرة للإعلام منذ العام 2005، في مساقات:
صناعة الأفلام الوثائقية | إنتاج البرامج التلفزيونية | التخطيط الاستراتيجي للمحتوى الإعلامي | الصحافة الاستقصائية | إنتاج الأفلام بالهاتف الجوال.

الفهرس

- كلمة المعهد 5
- إطلالة 7

الباب الأول

مدخل إلى الصحافة الاستقصائية

- صحافة الكشف 11
- علم الفرضيات والنتائج 19
- المصادر البشرية 23
- الوثائق والسجلات العامة 27
- الأرشيف المرئي والمسموع 31

الباب الثاني

أساسيات الوثائقي

- إبداع معالجة الواقع 37
- المدارس الفنية 39
- المذاهب الوثائقية 43

الباب الثالث

التحقيق الوثائقي

- خلق الفكرة وبناء الفرضية 49
- المعالجة الوثائقية التحقيقية 63
- أشكال التحقيق 79
- كيف نحقّق مع الشخصيات؟ 83
- سيناريو التحقيق الوثائقي 93
- أصول الكتابة التحقيقية 103
- التنفيذ الفني للفيلم 107
- نشر التحقيق 113
- المسموح والممنوع 115
- الأفلام والمشاهدات 127

كلمة المعهد

يُنظر إلى الصحافة الاستقصائية في العالم العربي بأنها ثقافة جديدة لا يمكن أن تزدهر دون مناخ ديمقراطي وتدفق حر للمعلومات، وممارسة محترفة تنقب عن البيانات وتضعها في سياق مناسب.

ورغم القيود والمتاعب التي تحول دون ممارسة الصحافة الاستقصائية، فإنها قطعت أشواطاً مهمة في الأعوام الأخيرة، خاصة على المنصات الرقمية.

في هذا الكتاب نضع أمام الصحفيين مساهمة جديدة تضيء على عالم الفيلم الوثائقي الاستقصائي، يحاول فيها الزميل إياد الداود أن يمزج بين صناعة الأفلام الوثائقية والصحافة الاستقصائية، من خلال خبرته التي تمتد لأكثر من 20 عاماً في كلا المجالين.

كما مكنته تجربته في التدريب من التعرف أكثر على احتياجات الصحفيين في هذا المجال، وتسليط الضوء على الجوانب التي تعزز خبرتهم المعرفية والمهنية.

معهد الجزيرة للإعلام

إطلالة

أهلاً بكم في علم طرح الأسئلة الصعبة، وفن تقديم الإجابات السلسة.

هنا حيث تتحول المخاطر والتحديات إلى قصص نموذجية للوقوف مع الإنسان، وإيقاف الظلم والتقصير.

«فن التقصي» كتاب يؤمن بأنه ما من وسيط يمكّن الصحافة الاستقصائية من الوصول إلى أكبر شريحة من الجمهور، ويطيل في صلاحية طرحها؛ مثل الفيلم الوثائقي. والبضاعة التحقيقية لطالما وجدت في الوثائقي نافذة عرض مثالية تعالج كثافة المعلومات وجفاف الأرقام، وتحولها إلى مادة مسلية ذات نتائج مدهشة.

في عالم الوثائقيات الاستقصائية، نمزج أناقة الوثائقي بالعمل المنظم الباحث وراء الحقيقة.

إذا ما نظرت إلى الكرسي الذي تجلس عليه الآن، أمعنت التفكير؛ ماذا عن مواصفاته الطبية؟ هل يناسب كبار السن أو الأطفال؟ أين صنع هذا الكرسي؟ كم التكلفة الحقيقية لصناعته؟ وكم يباع؟ هل تقاضى العامل أجرته كاملة؟ وكم تبلغ يا ترى؟ في حال إصابته، هل يغطيه تأمين صحي؟ لا تتوقف عن طرح الأسئلة، واصل منهجية التحقيق الاستقصائي. ستظنه مثلاً عابرًا، لا بأس، اسأل نفسك؛ أي سحر يحمله كرسي كي يبيد حاكم شعبه؟!

مدخل إلى
الصحافة الاستقصائية

صحافة الكشف

ماذا نقصد بالصحافة الاستقصائية؟ هل من فرق بين مصطلحي الاستقصاء والتحقيق؟ بماذا يختلف البرنامج الوثائقي عن الوثائقي التحقيقي؟ أسئلة بحد ذاتها تحتاج إلى تحقيق وتثبّت.

نحن أمام جهد بشري مُكثف، مادته المعلومات الموثقة، فالتأكد من المعلومة أهم من المعلومة نفسها. الرأي المجرد لا اعتبار له هنا، وبالتالي أنا أيضًا لا أعترف بترف النقاش الفكري الذي يفرّق بين مصطلحي الاستقصاء والتحقيق، فكلاهما وجهان لصنعة استجلاء الحقيقة، في لغة عربية ثرية بأكثر من 12 مليون كلمة.

التحقيق منهجية إعلامية نقدية، تلتزم أساليب التتبع والمراقبة والاستطلاع والتحليل، تضع فرضية وتختبرها، باستخدام المصادر البشرية والوثائق والسجلات والأرشيف البصري والصوتي. قد تلجأ إلى استخدام أدوات خاصة، مثل: التسريبات وانتحال الصفات والتصوير السري والتسجيلات الصوتية، بهدف كشف الأسرار وإزالة الغموض، وتقديم نتائج جديدة تحقق معايير المصلحة العامة؛ العدالة الاجتماعية والشفافية والمساءلة.

نقول صحافة استقصائية أو تحقيقية، لأنها تتناول مجالات موضوعية مختلفة؛ سياسية اجتماعية اقتصادية طبية رياضية.. كما يمكن أن تعرض بأكثر من شكل وقالب إعلامي، عبر تحقيقات مكتوبة في الصحف والمواقع والمنصات الرقمية، أو تقارير إخبارية، أو أفلام وثائقية، أو برامج تلفزيونية وإذاعية متنوعة.

وهي حين تكون تحقيقية وثائقية، تضيف إلى الشكل الوثائقي الذي يمكّننا من سرد القصة ورؤية الأدلة، سمات العمل الاستقصائي؛ المنهجي، الأصلي، المتعمق.

البرنامج الأمريكي «فرونت لاين» الذي أنتج أكثر من 600 فيلم وثائقي منذ العام 1983، يعرّف نفسه بأنه «صحافة استقصائية، حيث الأسئلة تغير العالم»، وأنه يروي قصصًا لا يتطرق لها الآخرون.

الصحافة العادية تسابق ظلها، تركض خلف الأخبار، تنثرها في الهواء كل ثانية، بينما الصحافة الاستقصائية تتأنى، تحلّل الجذور، تغوص في محيطات القضايا، تبتكر زاوية رؤية مختلفة، من خلال نظرية تلاحقها بنزاهة، فإما تثبتها، أو آخرَ المطاف تنفيها.

في الأخبار سيقولون لك «يُعقد مؤتمر حقوق الإنسان في مدينة كذا، في الأول من فبراير، لمناقشة قضايا كذا وكذا».. في التحقيق قد نرصد مسؤولي المؤتمر و/أو الضيوف، وحجم مخالفاتهم الحقوقية، وما يثبت ذلك من وثائق تعرض لأول مرة، أو نتعامل مع المؤتمر كخلفية لنقاش قضية معتقلي الرأي في الدولة.. فما هو خبر وقرع طبول يوميّ، يمسي دليلاً دامغًا ومنطلقًا تحقيقيًّا.

أرسل لنا أحد المنتجين رغبته بالتحقيق في ضرر المخدرات، ومن يا صاحبي لا يعرف ذلك؟! هل تعتقد أن من يروجها أو يتعاطاها لا يعرف مخاطرها؟! في التحقيق يغرينا الجديد، نحثّ الخطى نحو المعلومات القيّمة التي تؤثر في حياة الجمهور: كيف وصلت المخدرات إلى هنا؟ من المستفيد؟ هل هناك من غضّ الطرف؟ حين تمكّن فريق الجزيرة عام 2017 من مواجهة مروجي مخدرات في وضح النهار، في إحدى ضواحي باريس المتهمة بالجريمة، ألا يمكن أن يصبح السؤال الأهم: أين هي الجهات الأمنية المسؤولة؟

لماذا نحقق؟

من أجل تغيير العالم نحو الأفضل، حراسة الدولة ومؤسسات الشعب، فضح الخطأ، رفع الضرر، منع المخالفة، وكشف ما يهمّ المجتمع، سواء أكان واقعًا منحرفًا، أو نشاطًا غير قانوني، أو قضية رأي عام، أو شخصية غامضة، أو حدثًا تاريخيًّا مجهول التفاصيل، أو ملفًّا طرأت عليه بعض المستجدات التي تغيّر نظرتنا السابقة إليه.

الصحفي أو المنتج التحقيقي لا يقبل بالنسخة الحالية من الحقيقة، فكل شيء معرّض للتشكيك، وحتى ما تروّج له الحكومات والأحزاب والمؤسسات من إنجازات، قد يتضمن بعض المغالطات.

عام 2015، عمل التلفزيون السوري الحكومي على إنتاج برنامج تحقيقي باسم «نصف الحقيقة». الحقيقة الكاملة أن البرنامج أوقف قبل البث.. فاقد الشيء لا يعطيه، وقاتل الحقيقة لا يكشفها.

الصحافة التحقيقية تؤمن بأن محاربة الخطأ جزء من مسؤوليتها الوطنية، نيابة عن المواطن، ولصالحه. وهي عين الشعب، وأداة الرقابة الجماهيرية التي تدعم التوجهات الديمقراطية في الدولة.

هذا لا يتعارض مع إمكانية التحقيق لدعم النجاحات التي تنعكس على المواطن. قد نحقق لتشجيع التوجهات والسلوكيات الإيجابية، والوقوف مع المؤسسات المبتكرة، والمبادرات التطويرية.

حين عرض برنامج «المحقق كونان» عام 1996، تمكن الأمن الياباني من حل لغز 9 جرائم قتل، و10 جرائم أخرى، بالاستناد إلى قضايا وحبكات حلقات (الإنمي) التي قارب عددها الألف، والتي لا تشبه أيٌّ منها الأخرى، وتدرّس

لطلاب التحريات في جامعة بالصين. هذا مثال على الأثر الذي يمكن أن يحدثه الإعلام الاستقصائي، حتى لو كان برامج رسوم متحركة أو أفلامًا سينمائية.

يُصدر التحقيق تنبيهًا عالي الصوت، يُحدث زلزالاً في الرأي العام، حتى تتحرك الجهات التي تملك أدوات وشرعية التغيير.

في الفيلم الروائي «مارك فيلت.. الرجل الذي أسقط البيت الأبيض»، قال المحرر الصحفي لمارك فيلت نائب مدير مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI): «هل تريد أن نشعل نارًا حول الحواف بقصة؟».

فيلم «ماذا قتل عرفات؟» من إنتاج وحدة تحقيقات الجزيرة، أثبت أن الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات مات مسمومًا، وترك للجهات القضائية الفرنسية إعادة فتح ملف القضية من جديد.

باشرت السلطات البريطانية إجراءات تصحيحيّة، وفتحت تحقيقًا قضائيًا، بعد يوم واحد من تحقيق هيئة الإذاعة البريطانية BBC في برنامجها الوثائقي «بانوراما»، عن الفساد في اختبارات اللغة الإنجليزية، التي تمسّ قوانين الهجرة، وتجدّد على أساسها إقامات الطلاب.

وعندما شكّك البرنامج الوثائقي التحقيقي «ZEMBLA» في صحة ادعاءات النائبة البرلمانية الصومالية الأصل أيان علي، المعروفة بتوجهاتها المعادية للإسلام، حول قصة لجوئها إلى هولندا هربًا من التطرف والتعذيب، قاد ذلك السلطات الهولندية إلى تجريدها من حق اللجوء والجنسية.

التحقيق الوثائقي الناجح لا يخضع لميول السياسة، ولا يخشى تقلباتها.

كما يواجه الشائعات وأحاديث المجتمع، ويضع الحقائق في المقام الأول والوحيد، فهو يسعى للتأثير وصولاً إلى التغيير، بعيدًا عن هوس جمع الإعجابات.

فيلم «الرحلة 1103» المعروض ضمن برنامج «الصندوق الأسود» الذي أسّسه المنتج والمخرج إبراهيم حمدان، أثبت أن سقوط طائرة الخطوط الليبية عام 1992 لم يكن نتيجة عمل مدبر من معمر القذافي، وإن حاول استغلال الحادثة لأغراض سياسية. هذه الحقيقة تقنعك بها أدلة وبراهين الفيلم، حتى وإن تمنى البعض نتيجة مغايرة.

المشروع الذاتي

منتج التحقيقات ليس تاجر موضوعات ولا صحفي حقيبة، سرعان ما يبيع بضاعته، ويبدأ تجارة جديدة. إنما هو مدّع عام يقدّم القضية للمحكمة عند استكمال جميع النقاط، ويتحدى الزمن لإنجاز تحقيق متماسك. لذا فإن استقلالية جهده وتمويله، والحرية المسؤولة، والعمل الهادئ المثابر، هو ضمان نجاح مهمته.

يتحلى بصبر أيوب، ويمتاز بالشجاعة أمّ الفضائل.. الشجاعة ليست قرينة التهور، بل مواجهة ما لا مهرب منه بتدبّر وإقدام. كما أنها لا تعني عدم الخوف، بل التغلبَ عليه، فالصحفي التحقيقي مطالَب بالحفاظ على حياته، وعلى حياة مصادره وشخصياته.

كما أنه مطالب بالصلابة وعدم التهويل والتضخيم. تواصلَ معي أحد المتدربين في دولة عربية عند الساعة الخامسة صباحًا، ليخبرني بأنه معتقل في مركز أمني، وربما يكون هذا اتصالَه الأخير. عندما تسمع صوته تظن أنه مقبل على الإعدام، والموضوع ببساطة إجراء شكلي لتدقيق هويته، وعندما تم ذلك أخلوا سبيله في غضون ساعة.

لا يرضى الاستقصائي بما دون النجوم، يقوده شغفه، وتحميه موهبته وتشرّبه بالقوانين. ويتمتع بسمعة كذهب بريقه لا يساوم على الحقيقة.

وقبل كل هذا، يجب أن يكون صحفيًا متمكنًا من أساسيات الصنعة، لديه من الخبرة، والدقة، والمرونة، ما يكفيه مؤونة الطريق الطويل.

وبصراحة، فإن بيئة العمل الاستقصائي في الوطن العربي ما زالت مبتدئة، بالكاد تحبو، في ظل تردي أجواء الحرية، وضعف قوانين النفاذ إلى المعلومات، وشحّ الموارد البشرية والمالية، وقلة التدريب.

وبينما يزخر الغرب بتشريعات حرية المعلومات، والخدمات الخاصة بالوصول إلى البيانات والسجلات العامة، مثل: الموقع البريطاني «اسأل الدولة» (What Do They Know)، وموقع «اسأل الاتحاد الأوروبي» (Ask the EU)، يحدث أن تطلب معلومات من موظف عربي، فيقيم لك الأرض وهو يعظك بخطورة المعلومات، وعند باب مؤسسته تجد منشورًا يوزع على العموم، وفيه ما سألت، وزيادة.

عزيزي المنقّب عن الحقيقة، لا تتوقّع أن يفرش طريقك بالزهور، أنت تمر من بين شواهد القبور، تقف في مواجهة مع السلطة، أو مع مصلحة المؤسسة التي تعمل لها أو فيها، لذا فإنك في منطقتنا تسبح عكس التيار، ومن غير وجود الحماية الكافية، وبيئة العمل الآمنة، قد تضع نفسك وأسرتك ومصدر رزقك في مهب الريح.

اعلم يا رعاك الله، أنه تم اغتيال 34 صحفيًا عام 2018. وإذا أردت أن تعرف عينة مما يمكن أن تتعرض له، فشاهد حلقة «وثائق بنما» من برنامج قناة العربي «كنت هناك»، وما يرويه أربعة صحفيين عرب ممن شاركوا في العمل على أكثر من 11 مليون وثيقة مسربة، ضمن فريق من 370 صحفيًا، موزعين في 70 دولة.

أن تمتلك مسمى صحفي استقصائي، فهذا يعني أنك صاحب مشروع شخصي ومبادرة إنسانية، وهذا اللقب دونه الأثمان الباهظة.

مسؤولية المؤسسة

دورة حياة الأفكار التحقيقية تصاعدية، تضيء الفكرة في رأس صحفي حرّ لا يقبل بالقليل، يعشقها بلا هوادة، يخلق الوقت، لا يتعذّر بعدم التفرغ، يبذل من جهده وماله الخاص، يقاتل من أجل تسويق فكرته، وإقناع المؤسسة بجدوى تناول التحقيق، كلما طلب الاجتماع بمسؤوله الذي يرفع شعار الأبواب المفتوحة، وُوجه بالصد والسخرية.

قليلة هي الحالات التي تبدأ فيها بذرة التحقيق من المسؤول، لعل أهمها قصة التحرّش بالأطفال في الكنيسة الكاثوليكية بالولايات المتحدة الأمريكية. حين أمر رئيس تحرير صحيفة بوسطن غلوب فريق وحدة تحقيقات «سبوت لايت» بترك القصة التي يعمل عليها، ليتولى العمل على هذه القضية، بناء على مقال قصير يدور حول القس جون جيجان المتهم بالاعتداء على 80 طفلاً.

نعم، يتوجب على المسؤول أن يمثّل دور محامي الشيطان، يشكّك فيما يورده الصحفي، يستدعي فيه نزعة التحدي، يعمّق مهام البحث والتقصي بثقة أكبر، بهدف الوصول معًا إلى نقطة القوة، ودون تأخير في الحسم، فبعض القضايا لا تحتمل مزيدًا من الخراب.

تُعرف الصحافة الاستقصائية باسم «صحافة المشاريع»، والمؤسسة المسؤولة توفّر الوقت الكافي لعمل الصحفي، والأفضل أن تفرّغه من مهامه الأخرى، تتفهّم طول مدة العمل الكافية للوصول لنتيجة محترمة، تسنده بفريق متخصص، ولا تبخل بالدعم اللوجستي، وما يتطلبه العمل من نفقات. وأخيرًا تفكر مليًا بمساحة العرض المناسبة للتحقيق، فالعمل الجيد يحتاج إلى واجهة عرض جيدة.

كما على المؤسسة أن تفتح ذراعيها لأي تعاون محتمل مع مؤسسات أخرى، حتى لو كانت منافسة، فحين تكون حياة الجمهور على المحك تصغر

المكاسب التجارية، ويتساوى الصحفي المستقل مع المؤسسة الصغيرة مع المؤسسة العريقة، ويعملون معًا، كل في تخصصه، وفي دولته، من أجل الصالح العام.

الصحافة الاستقصائية عابرة للحدود، و«صحافة العالم الواحد». حين تلاحق شركة ملابس في بلدك بدعوى التهرب الضريبي، ستحتاج إلى تقصي مصنعها في الهند، ومتابعة الشركات التي تملكها، أو تقدّم لها الخدمات اللوجستية والنقل، التي قد تقع في دول الملاذات الضريبية مثل سنغافورة وبنما، والبنوك التي تتعامل معها في سويسرا، وهكذا.

لا شك أن التحقيقات الأولى هي الأصعب للصحفي، وللمؤسسة، كلاهما بحاجة إلى التشاركية في بناء السمعة الاحترافية. انظر إلى الصحفي المخضرم بوب وودورد، الذي ساهم في كشف فضيحة «ووترغيت» التي أطاحت بالرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون عام 1974، بعد إثبات تورطه في محاولة التنصت على مكتب الحزب الديمقراطي المنافس في انتخابات التجديد. اليوم يستقبل كتابه «الخوف» بالتقدير، ليدخل سريعًا قائمة الأكثر مبيعًا، وفيه ينتقد الرئيس دونالد ترامب، علانية دون موارية.

علم الفرضيات والنتائج

«لا نستطيع أن نثبت ما حدث فعلاً، بل ما قد يكون حدث»، هذه العبارة التي وردت على لسان المخرج جيمس كاميرون في فيلم ناشيونال جيوغرافيك «تايتانك بعد 20 عامًا»، تؤكد ما يسعى إليه الفيلم التحقيقي من نقاش علمي لمختلف الفرضيات. حينها قابل كاميرون أهالي الضحايا، وتابع تحاليل الطب الشرعي، واختبر تجارب احتمالات غرق السفينة، والأهم أنه حقّق في فيلمه الروائي الذي أخرجه قبل 20 عامًا مشككًا ومتسائلاً؛ هل نفّذه بالشكل الصحيح؟ مؤكدًا ضرورة فهم المخرجين للمسؤولية، وتقديرها.

الفرضية

التحقيق قائم على الفرضية. كي نكتشف الموضوع، نفترض نظرية التحقق منه، نختبر جديتها، نضمن الجديد الذي تعرضه.

تشكل الفرضية هدف الإنتاج، وتقودنا في سرد قصة واحدة مكتملة الأركان، وهو الأفضل، أو سرد مجموعة قصص متشابهة، أو على الأقل تقديم معلومات متماسكة حول موضوع التحقيق.

تصاغ الفرضية في جملة محددة، دقيقة، قابلة للقياس. ليس مقبولاً أن تقول أريد التحقيق في فساد النظام الصحي، هل تقصد التأمين الصحي؟ أم المستشفيات الحكومية أو الخاصة؟ أم الأخطاء الطبية؟ أم صناعة الأدوية؟ وهل لديك أدلة من حالات محددة؟ هنا تستخدم منطقك وحسّك الصحفي في تحديد الفرضية، تبحث عن عدد من المصادر المتطابقة، لتقول: «أطباء يقومون بعمليات جراحية خارج مجال تخصصهم، وفي أماكن غير مهيئة»، هذه فرضيتي، سوف ألاحقها.

تنبع قيمة الفرضية في توجيه خطة العمل، وتحديد المصادر والمراجع، مع التأكيد أن المحقق الناجح يسعى لنفي فرضيته، بنفس الجهد الذي يبذله لتأكيدها.

النتيجة

الجمهور لن يهتم بمشاهدة مباراة كرة قدم يعرف نتيجتها مسبقًا، الأصل في التحقيق أن الخلاصة جديدة كليًا، وربّما مفاجئة، هنا تكمن القيمة الكبرى للتحقيق المتكامل. هذا يختلف عن التطرق لمباراة نتيجتها معروفة، ولكن التفاصيل وجدل التحكيم وطريقة إحراز الأهداف بحاجة إلى مراجعة، النكهة هنا تبدو تحقيقية.

النتيجة بالنسبة للمشاهد أهم من الموضوع، وتطورات القصة الأخيرة أهم من بداياتها، حيث توصلنا لنتيجة لا يمكن اختراعها، فإما نكشف الغموض بخلاصة حاسمة، وإما نتوقف عند نقطة ما، ونشير بشفافية إلى ما تمكّنا من الوصول إليه.

الفرنسي ألبرت لوندرز، أحد رواد الصحافة التحقيقية، ختم تحقيقه عن مستعمرة العقاب في جزيرة غويانا، بهذه العبارة الموفقة: «لقد انتهيت، وعلى الحكومة أن تبدأ».

فيلم «الخط الأزرق الرفيع»، نموذج الوثائقي التحقيقي الذي يخلص إلى نتيجة. أولاً لأنه استطاع عام 1988 أن يشكك في رواية شهود جريمة قتل رجل شرطة في ولاية تكساس، ويكشف سوء تطبيق العدالة، ويبرء المتهم بالقتل والمحكوم بالإعدام بعد 10 سنوات من اعتقاله. ثانيًا لأنه عند عرض الفيلم بالسينما تم تسويقه كفيلم بوليسي، وقصدًا تم اغفال مصطلح الوثائقي، ثم عندما استدعت المحكمة المخرج وسألوه عن نوع الفيلم، أكد أنه وثائقي،

وحينها تعاملت المحكمة مع الفيلم كدليل معتبر. ثالثًا لأن الفيلم حقّق عائدًا ماليًا يزيد عن المليون دولار. رابعًا وهي النقطة الأغرب، حيث وبعد تبرئة راندال أدمز، رفع قضية على المخرج إيرول موريس يطالبه فيها بالتعويض عن استخدام قصته، وحدث فعلاً أن تنازل موريس عن جزء من الأرباح.

الدكتور مارك لي هنتر، أحد مؤسسي شبكة الصحافة الاستقصائية العالمية، وأهم المساهمين في تأليف الدليل التدريبي للصحافة الاستقصائية الذي أصدرته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، يقول: «الصحافة الاستقصائية لا تعني كشف كل شيء، بل كشف شيء ما»، «فإذا ما استطاع الشخص أن يكشف كل يوم شيئًا واحدًا فقط لا يعرفه الآخرون، ستكون حياته مجزية، ومليئة بالاكتشافات».

متى ينتهي التحقيق؟

هذا هو السؤال الأصعب. خبرة المؤسسة وفراسة الصحفي لهما الكلمة الفصل في نشر النتيجة الحالية، أو الانتظار والاستمرار بالحفر بالبئر، وبدلاً من الخلاصة التي تدين الموظف الصغير، نسعى لإسقاط قمة جبل الفساد. هذه الحالة كما لو سألك أحدهم: «هل تأكل شطيرة الآن؟ أم تنتظر الوجبة الدسمة؟».

يحكون عن قصة الحاكم الذي عرض على المزارع الفقير أن يجري في الأرض ما استطاع، وحين يتوقف فهي ملكه، جرى المزارع إلى ما لا نهاية، كلما همّ بالتوقف طمع أكثر، حتى وافته المنية من فرط التعب.

في المقابل، المؤكد بأن التحقيق لا ينتهي حتى بعد نشره، فهو متواصل منفتح على أي تطورات قد تعيد استئناف القضية من جديد، العالم يتحرك، والزمن كفيل بكشف الكثير، والصحافة الاستقصائية مخلوقة كي لا تتوقف عند نقطة معينة.

المصادر البشرية

رجال الأمن، الدفاع المدني، المستشفيات، المدارس، الجامعات، المحاكم، مكاتب المحاماة، البرلمانات، النقابات، الدوائر الحكومية، غرف التجارة والصناعة، الشركات الخاصة، المؤسسات الإعلامية، شركات الاتصالات، النوادي الرياضية، مراكز الدراسات، الباحثون، المؤلفون.. لا يمل الصحفي من توسيع دائرة مصادره كل دقيقة، ودليل هاتفه الجوال شاهد على قائمة الشخصيات الواسعة، ممن يحافظ على بناء علاقة احترام وثقة متبادلة معها.

المصادر البشرية ثروة العمل التحقيقي، تشكّل بنك المعلومات التي تملك خيوط القصة؛ قد تشارك معنا كضيوف، أو تكتفي بتزويد المعلومات، وقد تصبح رجع الصدى لما يحدث في المجتمع.

الصحفي سيمور هيرش وجد مصادره في المخابرات الأمريكية من خلال تتبع إعلانات التقاعد. كما كشفت هيئة الإذاعة البريطانية BBC عن خروج تنظيم الدولة من الرقة عام 2017، ضمن صفقة مع التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة، من خلال شهادات سائقي الشاحنات الذين نقلوا سرًا مقاتلي التنظيم وعائلاتهم.

المصدر المثالي

فيلم «مخبر القاعدة»، اعتمد على مصدر واحد عرض تزويد وحدة تحقيقات شبكة الجزيرة بشهادات حول دعم الرئيس المخلوع علي عبد الله صالح لتنظيم القاعدة في اليمن، مؤكدًا معرفته بهذه المعلومات خلال عمله مخبرًا للحكومة اليمنية في أوساط القاعدة. وبسبب خطورة الاستناد إلى

مصدر واحد، حتى لو كان مطّلعًا، وكي لا تقع الجزيرة فريسة أجندة سياسية، كان لا بد من تفحّص صدقية روايته الخطيرة، ولذا استأنست الجزيرة برأي خبيرين في مجال مكافحة القاعدة. كما واجهت المصدر، ولم تجامله في حقيقة تخصّصه في صنع القنابل، ما جعل القاعدة تثق به.

صفات المصدر المثالي:

- أساسي ومصدر أول، وليس ناقلاً للمعلومة من أطراف أخرى. تناقل المعلومة قد يحوّل إصابة مسؤول في حادث سير إلى محاولة اغتيال، نفّذتها عصابة إجرامية، بإيعاز من أنظمة عالمية، تسعى لزعزعة الأمن القومي.
- دقيق وموثوق، تاريخه نظيف، ليس فيه ما يضير براءة ذمته، ويقدح رجاحة عقله.
- نزيه ومحايد، لا يحمل فائدة شخصية في موضوع التحقيق، ولا يرجو مقابلاً ماديًا؛ فالمصلحة مفسدة الإعلام، والمال يلوّث المعلومات.

«ووترغيت»، الفضيحة الأشهر في السياسة الأمريكية، شهدت على أهمية المصدر في مجريات التحقيقات الاستقصائية، حينما شكّل مارك فيلت، الرجل الثاني في مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) مصدر معلومات صحيفة الواشنطن بوست التي أطلقت عليه لقب «الحنجرة العميقة»، ورغم الشك في عدم حياديته بسبب ما يمكن اعتباره انتقامًا لتخطيه في الترقية بعد وفاة رئيس (FBI) عام 1972، ولأنه مسجّل في الحزب الديمقراطي المنافس للحزب الجمهوري في الحكم، إلا أن كونه مصدرًا أولاً مطلعًا ودقيقًا وموثوقًا، وعدم رضوخه لضغوط البيت الأبيض والمدعي العام ووكالة المخابرات المركزية (CIA)، قاد الواشنطن بوست إلى المضي لأقصى مدى، وصولاً إلى الرئيس الجمهوري الأسبق ريتشارد نيكسون.

وقد حافظ الصحفي بوب وودورد على وعده بحفظ سرية مصدره، حتى قام فيلت بالكشف عن هويته بعد 30 عامًا من الحادثة. ويمكن مشاهدة تفاصيل القصة في الفيلمين الروائيين؛ «كل رجال الرئيس»، و«مارك فيلت.. الرجل الذي أسقط البيت الأبيض».

الوثائق والسجلات العامة

اشتغل فريق جامعة كولومبيا في نيويورك على سجلات الرحلات البحرية في العالم، وطرحوا على أساسها قصة الفوضى في مجال الشحن البحري، وأكدوا أن كل سفينة مملوكة لشركة سياحية أمريكية؛ مسجلة في بلد بعيد، وبالتالي يخضع الركاب لقانون دولة التسجيل لا للسلطة الأمريكية، مما يفسّر سوء التعامل في سوق العمل الخاص بهذه السياحة، إضافة إلى تعقيد التحقيق في الجرائم التي تقع على متن هذه السفن. هذا نموذج لقيمة البيانات التي تقدّمها السجلات العامة والمستندات، ومن خلالها نستطيع تتبع الأشخاص والشركات والحكومات والأموال.

عدم توفر وثيقة وفاة رسمية في مؤسسات الدولة اللبنانية للقائد العسكري في حزب الله مصطفى بدر الدين، يفتح الباب أمام نقاش نظرية عدم اغتياله.

لا تفترض استحالة الوصول إلى الوثيقة، قد تجدها داخل المنزل، في أرشيف مؤسستك أو مكتبتها، لذا فإن أول ما يجب فعله هو المرابطة في المكتبة عند بداية عملك على التحقيق. صدّقني؛ المشكلة لا تكمن في الوثيقة، وإنما في العقلية التي تبحث عنها، وتبالغ في سريتها. أرجوك لا تكرر قصة المسجون الذي أخبره الإمبراطور لويس الرابع عشر بأنه فتح له منفذًا للهروب، ومعه مهلة حتى الصباح للهرب، وإلا سينفّذ فيه حكم الإعدام، فما كان من المسجون إلا أن حاول عمل كل شيء صعب: زحف في سرداب ضيق طويل، حاول نزع قضبان الحديد، حتى أعياه التعب، وحين دخل عليه الإمبراطور في الصباح، أخبره بأن قفل باب الزنزانة كان مفتوحًا.

الفيلم الروائي «ذا بوست» يستعرض قصة فريق الواشنطن بوست، وكيف تعاملوا بجدية مع وثائق البنتاغون حول حرب فيتنام، ويطلعنا على تعاون

الجميع في دراسة وتحليل الوثائق التي كانت تتوافر تباعًا، حتى وصلوا إلى كل الوثائق.

في حالة بحثنا خلف متهم بالفساد، ومتخفٍّ عن الأنظار، غالبًا سنبحث في وثائق وسجلات: المطارات والمعابر | المحاكم | الأمن | الهجرة والجوازات | الأحوال المدنية | شركات الاتصالات | الأملاك العقارية | الفنادق | السجلات الطبية والمستشفيات | غرفة الصناعة وعناوين المستثمرين | مؤسسة ضريبة الدخل | تقارير مكاتب التدقيق المالي | المرور وتسجيل السيارات ورخص القيادة | الرسائل الشخصية والصور الفوتوغرافية. ولدينا كنز هذا العصر الرقمي؛ وسائل التواصل الاجتماعي، ومواقع الإنترنت.

عام 2018، وفي تعاون عبر القارات، استخدم 3 صحفيين آلاف النسخ من صحيفة الكاميرون تريبيون لنشر تحقيق حول الرحلات الخاصة بالرئيس بول بيا، الذي يحكم الكاميرون منذ أكثر من 35 عامًا. وقد أوضح التحقيق أنه قضى منها ما يقارب 4 سنوات ونصف خارج البلاد، وفي غير رحلات العمل الرسمية التي تزيد عن هذا العدد بسنة إضافية. كما تبيّن أنه قضى ثلث السنة خارج الكاميرون عامي 2006 و2009.

حينها، كذبت الصحيفة الحكومية التي تملأ أخبار سفريات الرئيس صفحاتها، هذا التحقيق بحجة عدم توافر أرشيفها على الإنترنت.

الحقيقة أن الصحفيين كانوا يدركون عدم تعاون الصحيفة، وقد استطاعوا الحصول على 390 وثيقة من الصحيفة في مبنى صغير للأرشيفات الحكومية جنوب غربي الكاميرون، و3095 وثيقة من المكتبة الوطنية الفرنسية في باريس، و786 وثيقة من مكتبة جامعة هارفارد في بوسطن. في الخطوة اللاحقة غربلوا البيانات وأزالوا المتكرّرات، حتى وصل مجموع الرحلات الخاصة إلى 190 رحلة، يجب توثيق كل منها عبر صحيفة تشير إلى المغادرة، وأخرى تشير إلى العودة من الرحلة نفسها.

وقد تحقّقوا من النتائج عبر تنبيه خاص على تويتر بمطار جنيف. كما أعلنوا بشفافية ما قاموا به من إجراءات، بدءً من تنفيذ البحث وصولاً إلى النتائج التي تصل لرأس السلطة. ثم برمجوا موقعًا مفتوحًا هو: www.cameroundebiya.com، يمكن للراغبين القيام بتحقيقات أخرى بناء على بياناته.

صحافة البيانات

ضخامة محتويات السجلات العامة، إضافة إلى الكم الهائل من الوثائق والمعلومات على الإنترنت، استدعت تنامي مجموعة من المنهجيات في تجميع البيانات، وإحصاء الأرقام، وتحليلها، وعرضها على الجمهور بأسلوب مبتكر، يسهّل استخلاص البراهين.

أنشأت BBC بالتعاون مع مركز الصحافة الاستقصائية قاعدة بيانات ضخمة حول رواتب القطاع العام في بريطانيا عام 2010، ونشرتها على موقع http://bbc.in/IKPrL2. تبين مثلاً أن أكثر من 9 آلاف موظف عام يتقاضون أجرًا أعلى من رئيس الوزراء. وقد أنتجت حلقة من برنامج «بانوراما»، كشفت فيها الكثير من الحقائق من خلال تحليل أرقام هذه القاعدة، بعنوان «رواتب القطاع العام.. الأرقام».

الحياة وسط كومة من الأرقام تعني أن نتأقلم معها، نتعامل كما لو كنا نقابل مصدرًا للمعلومات، نسأل وندع المعادلات الرياضية تجيب.

حين يعمل صحفي بدولة خليجية على فرضية خطورة الاستبدال المباشر لرخصة قيادة جنسية معينة دون إجراء الاختبارات اللازمة، فإن أكثر ما يفيده هو الوصول إلى سجلات إدارة المرور وبيانات الحوادث المرورية، ومن خلال أساليب صحافة البيانات يقوم بجمع المعلومات، وتصنيف الحوادث حسب

الجنسية والخطورة والفترة الزمنية وتاريخ استصدار رخصة قيادة السائق، ثم إيجاد وسيلة عرض مناسبة، ضمن جداول ورسوم بيانية، بما يدعم فرضية التحقيق.

الأرشيف المرئي والمسموع

المستقبل للصورة المتحركة، وإذا كان «التفكير مستحيل من غير صورة» حسب السيد أرسطو، فإن الدليل البصري أو المسموع أساس العمل التحقيقي. وبينما يحمل التسجيل الصوتي بصمة صوتية، يتحدث الفيديو والصورة ببلاغة محتوياتهما الوصفية.

أنتجت ناشيونال جيوغرافيك سلسلة متميزة من 6 حلقات بعنوان «جرائم المحيطات»، للتحقيق في مادة فيديو قصيرة نشرت على يوتيوب، حول جريمة قتل في البحر الصومالي عام 2012. ورد في نص الحلقة الأخيرة: «عادة في مسرح الجريمة، تكون هناك تحاليل جنائية، وبصمات وحمض نووي.. في هذه الحالة لدينا الفيديو فقط».

كذلك، أخرج إيرول موريس فيلمه الوثائقي عن سجن أبو غريب «إجراءات العمل الاعتيادية»، بالاعتماد على الصور الفوتوغرافية التي التقطها الجنود الأمريكيون بأنفسهم، وعلّل ذلك بقوله: «أعلّق أهمية كبرى على الصور، وهذه الصور شوهدت على مستوى غير مسبوق في التاريخ البشري.. لقد لطّخت سمعة الأمريكيين».

الوثيقة الورقية تدل على الحدث، بينما الوثيقة الصورية تجعلني أعيشه، تريني الأشخاص، تنقلني إلى المكان، لذا فهي تشكّل أدلة لا تُصدّ ولا تُردّ، ما لم يتم تضليلها أو التلاعب بها.

الصورة الثابتة أو المتحركة مليئة بالعناصر التي يجب تحليلها والوقوف عندها، من قبيل: الشخصيات | السيارات وأرقامها | الطبيعة الجغرافية | الطقس | المنطقة | الشوارع | اللافتات | الملابس | الأسلحة | المعدات |

النسب والأحجام | الألوان والظلال | الحركة | تاريخ التصوير | نوع الكاميرا | جودة التصوير.. وكذلك المادة الصوتية تتضمن: اللغة | خامة الصوت | مخارج الحروف | السرعة | البيئة المحيطة.. فأيّ عنصر من هذه العناصر يمكن أن يشكّل علامة بارزة، وكل عنصر يتم فحصه بالسمع، أو بالعين المجردة، أو عبر التحليل التقني، للتحقّق من صحته أولاً، ومن نسبته للقصة أو الحدث موضوع التحقيق ثانيًا.

ويتنس (Witness)، منظمة دولية غير ربحية، تؤمن بقوة الفيديو، وتأثير سلاح الكاميرا في مكافحة أسلحة الموت والقمع والاضطهاد. تقول بريسيليا نيري، مديرة البرنامج في المنظمة؛ عن إحدى القضايا التي تابعتها حول مقتل 2000 مواطن سنويًا على يد الأمن في البرازيل: «رغم كل الصعاب، فإن وجود فيديو تم التقاطه من قبل شخص متواجد على مقربة من الحادث، غالبًا ما يكون بمثابة أمل حقيقي ـ وأحيانًا الأمل الوحيد ـ لتقصي الحقائق والمحاسبة في قضايا العنف التي يرتكبها أفراد الشرطة. قدم الفيديو دليلاً دامغًا لا يمكن إنكاره، ودحض الروايات الكاذبة، وساعد في تكثيف الضغط على المؤسسات والسلطات المسؤولة عن تحقيق العدالة.. وكأن وجود الفيديو الوسيلة الأفضل لضمان عدم إعلاء صوت ضابط الشرطة فوق صمت الضحية الميتة».

كيف استدل العالم على استخدام الأسد للسلاح الكيميائي؟ فقد درج النظام السوري وحلفاؤه على ادعاء فبركة الأدلة. هنا تدخلت وكالة (Bellingcat) وبالاستناد إلى المصادر المفتوحة لتقييم فيديوهات الناشطين السوريين، وأثبتت أن لقطة المروحية التي انطلقت من إحدى مطارات النظام، وألقت عبوة غاز فوق أحد المباني، ترتبط مع فيديوهات أخرى للمبنى ذاته، وفيه قتلى يفترشون الأرض.

استندت المحكمة الجنائية الدولية لجرائم الحرب في يوغسلافيا السابقة، في تحقيقاتها بشأن تورط القائد الصربي زدرافكو توليمير في الإبادة

الجماعية لمسلمي البوسنة، إلى مادة فيديو صوّرت في سياق احتفالي عشية رأس السنة، وفيها خطب الجنرال الصربي راتكو ملاديتش مادحًا توليمير، ومشيرًا إلى أنه أحد قادة النواة الداخلية لهيئة الأركان الحربية الذين شاركوه الانتصارات.

كما قضت المحكمة الجنائية الدولية الخاصة برواندا بسجن المذيع جورج روغيو مدة 12 عامًا، بناء على تسجيلاته الصوتية وخطاباته التحريضية على القتل في إذاعة «الحرة للتلال الألف»، واعتبرتها سببًا في تصفية ما يزيد عن مليون رواندي.

أساسيات الوثائقي

إبداع معالجة الواقع

خُلق الوثائقي كي ينزل إلى الحياة، ويشتغل على العالم الذي يحيط بنا؛ يواجه الحقيقة على نحو فعال، يناقش القضايا العامة بمنهج تحليلي وطريقة ممتعة، ويحفظ ضمير الإنسانية.

هو معادلة الوصول إلى الواقع من خلال الفن، حاصلُ جمع الحقيقة مع وجهة نظرك، وكلما كان حرًا جريئًا شفافًا، اجترح المعجزات.

«معالجة خلاقة للواقع»، هكذا يعرفه رائد السينما الوثائقية؛ البريطاني جون جريرسون. وحسب تعريف الاتحاد الدولي للسينما الوثائقية، هو «كافة أساليب التسجيل على فيلم، لأي مظهر للحقيقة، يتم عرضه بوسائل التصوير المباشر، أو بإعادة بنائه بصدق، وذلك لحفز المشاهد إلى عمل شيء، أو توسيع مدارك المعرفة والفهم الإنساني، أو وضع حلول واقعية لمختلف مشاكل الاقتصاد أو الثقافة أو العلاقات الإنسانية».

المخرج الأمريكي مايكل مور يعتبره أحد أشكال الصحافة، بينما يعتبره آخرون الخط الأول للتعليم، ويتفقون على القدرة الهائلة للوثائقي في اختزال المعارف، وتقديمها لمختلف شرائح الجمهور بطريقة ملفتة.

يهدف الوثائقي إلى صنع الخبرة البشرية، يسافر عبر حدود الزمان، يجعل الموضوع بقصته وشخصياته وأماكنه الحقيقية، صالحًا للعرض في أي وقت.

تتطلب صناعة الوثائقيات التنقل وملاحظة الواقع، ثم الانتقاء وترتيب العناصر حسب رؤية معينة. كل هذا ضمن تفاعل مرن مع العالم الحقيقي، يستثمر المتغيرات بذكاء، ويحيل المفاجآت إلى مكاسب.

هنا، قد تصبح قصة الفشل في صناعة الفيلم المطلوب، هي الفيلم ذاته. فيلم «إلى جناب السيدة رئيسة الوزراء بينظير بوتو»، أخرجه الراحل عمر أميرالاي عن السيدة بوتو التي رفضت مقابلته في الفيلم رغم موافقتها المسبقة، فما كان منه إلا أن أعاد بناء الفيلم، مؤكدًا فرضية دكتاتورية هذه الشخصية، وموثقًا لمشهد جلوسه الطويل في الفندق، أمام الهاتف، في انتظار موافقتها، ومن ثم لمشهد تنقله في قطار الشعب الباكستاني البسيط، الذي لا سبيل له للوصول إلى السيدة بوتو، ليرسّخ رؤيته التي أصبحت أكثر فاعلية.

المدارس الفنية

شكّلت عشرينيات القرن الماضي بداية تأصيل الإنتاج الوثائقي، من خلال ثلاث مدارس تشتغل على الحقيقة، تميّزت كل منها بقواعد وملامح فنية موحّدة.

1. المدرسة البريطانية

يمثّلها الأب الروحي للفيلم الوثائقي، المنتج جون جريرسون، الذي يؤمن أن الوثائقي مطرقة تعيد تشكيل الواقع، وليس مجرد مرآة تعكس صورته. ووظيفته الرئيسية هي التوعية الاجتماعية، ونقل الأفكار المخلصة لتحقيق مصلحة الجمهور.

الأولوية هنا للإعداد والتخطيط المسبق، واستخدام التعليق الصوتي، والإقناع الفكري مقدّم على الشكل.

خلال مسيرة حياته، أخرج جون جريرسون فيلمين، أولهما «قوارب الصيد» (Drifters) عام 1929، بينما أشرف على إنتاج أكثر من 50 فيلمًا، ودعم وشجع العديد من مخرجي الأفلام الوثائقية.

2. المدرسة الأمريكية

مخرجها الأمريكي روبرت فلاهرتي، شاعر السينما الوثائقية، وأستاذ الاتجاه الرومانسي المعروف بعنايته الفائقة بالجماليات، وقناعته بأن التصوير هو وسيلة صناعة الأفلام العظيمة.

فيلمه الأول «نانوك رجل الشمال» الذي أخرجه عام 1922، إحدى روائع الكلاسيكيات الوثائقية. حينها روّج له بعبارة «قصة حياة وحب في القطب الشمالي الحقيقي»، وقد اعتمد فيه أسلوب الملاحظة الطويلة لحياة صياد وعائلته، وترك لصراع الإنسان والطبيعة أن ينمو أمام الكاميرا مثل قصيدة شعر.

تميّز فلاهرتي بذهابه إلى المجتمعات النائية، وحبّه لأبطال أفلامه، وتقديمهم بصورة البدائي النبيل، مما ساهم في انتشار أفلامه الوثائقية التي بلغ عددها 15 فيلمًا.

3. المدرسة الروسية

يعتقد مخرجها ديزيغا فيرتوف أن المونتاج أساس الفن السينمائي، والوثائقي سلاح تثوير الواقع، وخدمة الأيدولوجيا.

هو صاحب فيلم «الرجل ذو الكاميرا السينمائية» عام 1929، الذي يصنف ضمن أفلام «سمفونيات المدن»، ويجسّد مراحل صناعة الأفلام. جرّب فيه كل أدوات المونتاج لعرض حياة يوم في مدينة الأوديسا، وحينها تخلّى عن السيناريو الجاهز للتحرّر في بناء الفيلم أثناء المونتاج.

الأوديسا، المدينة التي انطلقت منها أشهر أفلام السينما الروسية في بداياتها، والتي تقع اليوم في أوكرانيا بعد استقلالها عن الاتحاد السوفياتي عام 1991، ربما تشكّل أهميتها السينمائية أحد الأطماع الروسية في أوكرانيا.

نلاحظ أن جريرسون البريطاني ركَّز على المضمون الفكري لخدمة المنفعة الاجتماعية، وأن فلاهرتي الأمريكي رأى أن الفيلم هو ما تخلقه الكاميرا

لغايات الترفيه، بينما اهتم الروسي فيرتوف بالمونتاج وسحره في إثارة الأفكار. وبالطبع فإن تركيز أي منهم على تفعيل عنصر معين، لا يعني إغفال العناصر الأخرى.

ثلاث مدارس إن اجتمعت قيَمُها في الموضوع والتصوير والمونتاج، أخرجت الوثائقي المثالي.

4. مدرسة الدراما الوثائقية «الدوكيودراما»

تتعامل مع الواقع من منظور درامي يعطي صورة طبق الأصل عن الحقيقة. وقد نشأت بعد الحرب العالمية الثانية بهدف تعويض النقص في مواد وصور المواضيع الوثائقية.

تتخفّف هذه المدرسة في شرطين من شروط الوثائقي؛ المكان والشخصيات الحقيقية، لصالح استخدام الممثل والديكور الصناعي في جزء من الفيلم. ومبرّر ذلك هو التعويض، لا تقديم فيلم روائي كامل.

المصداقية جوهرة الفيلم الوثائقي، وقد كان فلاهرتي دائم القول: **«أُفضّل** أن يؤدي أفلامي الوثائقية أناس طبيعيون غير محترفين، من أن ألجأ إلى عباقرة هوليود**»**. لذا، على صانع الفيلم ألا يحوّل الميزة إلى نقيصة، ولا يقلب القمة قاعًا.

يقول المخرج الروسي سيرغي أيزنشتاين: **«**لماذا نستخدم الممثل ليتقمَّص شخصية الفلاح، في الوقت الذي نستطيع أن نخرج ونصوّر الفلاح الحقيقي**»**.

المذاهب الوثائقية

لدينا عدة مذاهب وأساليب لمعالجة أفكار الأفلام الوثائقية، وعرض رؤاها الموضوعية ضمن قوالب فنية إبداعية. ويصنّف الباحث الأمريكي بيل نيكولز هذه المذاهب كأنواع فرعية للوثائقيات. نحن سنركز على المذاهب التي تصلح لعرض المواضيع التحقيقية.

1. مذهب التفسير

الطريقة الكلاسيكية في طرح المواضيع التاريخية، أو معالجة القضايا بشكل مباشر، عبر شرح العلاقة بين السبب والنتيجة، أو تلخيص قضية وإصدار استنتاج، أو اقتراح حل لمشكلة.

يستند إلى التعليق الصوتي كعنصر رئيسي في تقديم وجهة نظر الفيلم، إضافة إلى المقابلات، والعناصر الفنية التي تمهّد لمناقشة فكرية: أرشيف الفيديو والوثائق والغرافيك. المونتاج يخدم تسلسل الطرح الفكري أكثر من الاستمرارية الزمنية أو المكانية للقطات والمشاهد.

مذهب التفسير يشتغل ضمن توجهات جريرسون والمدرسة البريطانية، وهو النهج المفضل للبرامج الوثائقية التلفزيونية.

2. مذهب الملاحظة

مراقبة الأحداث أثناء حدوثها، وتسجيل التجارب الإنسانية عبر الكاميرا، مع ضمان وحدة وتواصل الزمان والمكان في المونتاج.

يعتمد تصوير اللحظة الراهنة، والصوت المباشر للشخصيات التي تقود أحداث السيناريو، وتملك سلطة الفيلم. وفي الأساس فإن التعليق، والموسيقى، والعناوين المكتوبة على الشاشة، وكل ما يعتبر تدخلاً من المخرج، فهو غير مقبول.

هذا الأسلوب أقرب ما يكون إلى السينما الروائية، ويعرف أيضًا بمصطلح «السينما المباشرة»، الذي يعبّر عن الاتجاه الأمريكي المعروف بالتصوير الميداني المباشر، وهو ما يتوافق مع مدرسة الأمريكي فلاهرتي.

3. مذهب التفاعل

تفاعل صانع الفيلم مع الموضوع، ومشاركته مع الشخصيات والأحداث، حيث نسمع صوته وهو ينخرط في حوارات مع ضيوف الفيلم، أو قد يقوم بدور المقدّم أو المحقّق، فهو حاضر هنا بقوة، على عكس مذهبي التفسير والملاحظة، حيث لا يفترض أن يظهر، ولا أن نشعر بوجوده.

قد يظهر الأسلوب التفاعلي أو التشاركي طريقة الوصول إلى الشخصيات، ومفاوضات التصوير معهم، وكواليس الإنتاج. وهذا ما تفعله بعض الوثائقيات التي تصنف ضمن «أفلام المقدّم».

4. مذهب الأداء

أحدث المذاهب الوثائقية، ويتقاطع مع المذهب التفاعلي، خاصة في مشاركة المخرج في الفيلم عبر تجربته الشخصية، لتقديم قضايا سياسية، أو طرح مشاكل اجتماعية، بطريقة حيوية مليئة بالمشاعر. وهذا ما يفعله مايكل مور في أفلامه.

إعادة تمثيل الأحداث من أهم تقنيات هذه الطريقة التي تعتمد على الإبهار الشكلي، وتبالغ في استخدام أدوات التعبير أثناء عملية المونتاج، مثل: التحكم بزمن اللقطات، واستخدام اللقطات المقربة، وعرض الخرائط والرسوم.

يعتمد فيلم «فهرنهايت 11/9» مذهبي التفاعل والأداء، من خلال حوار المخرج مايكل مور مع بعض الشخصيات، وتدخّله في الفيلم. وقد ركّز في عرض الوثائق الورقية، والصور الفوتوغرافية، والمواد الفيلمية الواردة في أفلام روائية. كما يستخدم مذهب التفسير في طرح القضية، وتقديم تحليلاته، ومن ثم استنتاجاته الخاصة، وذلك من خلال التعليق الصوتي بطريقة محكية، إضافة إلى تصوير المقابلات بكوادر تقليدية.

للمخرج المحترف أن يأخذ من كل مذهب ما يناسب خصوصية فيلمه، دون بناء جدار عازل بين المذاهب الوثائقية.

التحقيق الوثائقي

خلق الفكرة وتطوير الفرضية

أثبت العلم بأن الإنسان لديه فكرة كل ثانية، كم من هذه الأفكار غير عادي وصالح لتحويله إلى وثائقي تحقيقي؟ هنا يكمن الفرق.

مهارة صيد الأفكار مرتبطة بفعالية الإنسان في هذه الدنيا، ولهذا ربط الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت التفكير بالوجود؛ «أنا أفكر، إذًا أنا موجود».

اليمن أحد أفقر الدول العربية، يمتلك رئيسها المخلوع الراحل ثروة تفوق 32 مليار دولار، كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ حاول الصحفي جمال المليكي أن يقدم الإجابة في فيلم الجزيرة «اليمن.. الأموال المنهوبة».

الإنسان هو ما يفكر فيه، ما يهمّه من قضايا وإشكاليات، والأفكار تبحث عنا كما نبحث عنها.

وكلما خرجتَ إلى الحياة، وشغّلتَ «متلازمة الرجل المكسورة» لتشعر بعقدة من يعاني المشاكل، وتضع نفسك مكانه؛ زادت فرصة انتقاء الفكرة الموفقة التي تضمن نصف الطريق إلى النجاح.

لديك معلومة حول توزيع كيلوغرام من المخدرات يوميًا ومجانًا في مدينة القدس، حينها ستبحث فيما يدعم صحة ذلك، ثم ستضع خطًا عريضًا تحت كلمة مجانًا، وتتقصى عن المستفيد من تخدير سكان واحدة من أقدس مدن العالم، لا تفكّر فقط في الشاب الذي يروج المخدرات، فكل حركة في مدينة القدس مرصودة من قبل الاحتلال الإسرائيلي، إلا المخدرات تسرح وتمرح بلا عقاب.

الفكرة المثالية

الفكرة بذرة، حين تنتقيها بعناية، وترعاها بشغف، تنمو كشجرة أصلها ثابت، ثمارها تنفع الناس. يقول الأديب الفرنسي فيكتور هوغو: «أقوى شيء في الكون كله، أقوى من الجيوش، وأقوى من القوة المجتمعة للعالم بأسره؛ فكرة آن أوان خروجها إلى النور».

معايير تقييم الفكرة التحقيقية:

- حاجة المجتمع: تهمّ الجمهور، وتلبّي احتياجاته.. تؤثّر في حياته الآنية، وتمتدّ تفاعلاتها إلى مستقبله.

  مهما كان الموضوع يَعنيك، فالأهم أن يَعني المجتمع أكثر.

- الحداثة والجدية: فهي إما جديدة كليًّا، أو تتناول زاوية وتضيء على فرضية مجهولة.

- النمط والتكرار: وهو ما يحوّل الحادثة المنعزلة أو الحالة غير المألوفة إلى ظاهرة ممتدة أو قضية رأي عام. وبالتالي حين يستخدم عامة الجمهور اسم «شارع الموت» للاستدلال على طريق مروري، ألا يدعونا هذا إلى التحقيق في أسباب تكرار الحوادث القاتلة؟

  في استراحة إحدى دورات الصحافة الاستقصائية، لاحظت من النافذة مجموعة عمال يقفون بشكل خطير في الشارع الرئيسي، بانتظار الحافلة التي تقلّهم، والتي تعطّل حركة السير عند وصولها. تكرّر الموقف في الأيام التالية، هذا يقود إلى التفكير في احتمالية الخطر مستقبلاً، فمن دور الاستقصاء الوقايةُ قبل نزول الواقعة.

- حجم الوحش: عدد ومساحة التأثير السلبي.

هل نتحدث عن عدم الاعتناء بالنظافة في مطعم صغير على ناصية الطريق، أم في مجموعة مطاعم لها عدة فروع بالدولة، أم في سلسلة عالمية شهيرة لمطاعم وجبات سريعة؟

- نوعية التأثر: حالة وفاة واحدة كفيلة بأن تلاحقها، فكيف إذا أدى انهيار المبنى إلى عدد من الوفيات، أو تهجير أسر بأكملها؟ تصوّر حجم الأذى الواقع على مستقبل المواطنين عند اختلاس ملايين الدولارات من صندوق الدولة السيادي.

- إمكانية إيقاف المذنبين: من يقف خلف هذه الإشكالية؟ هل يمكن الوصول إليهم، وكفّ أيديهم ومحاسبتهم، سواء فعلوا ذلك عن قصد وإصرار، أو نتيجة تقصير وإهمال؟

إذا أخبرتك ابنتك أن 3 أطفال أغمي عليهم في المدرسة صباح اليوم، ستسأل في اليوم التالي هل تكررت الحادثة؟ فقد يفتح ما حدث بابًا للتحقيق، ويمنحك مفاتيح الأسئلة التي تقود إلى تشكيل الفرضية: هل لطابور الصباح تحت الشمس الحارقة أثر؟ هل من إشكالية تسمم في طعام كافتيريا المدرسة؟ هل يتناول هؤلاء الأطفال نوعًا غذائيًّا منتهي الصلاحية، أم أن فيروسًا ينتشر بين الأطفال؟ تبدأ الفرضية بالتمركز من خلال البحث والتساؤلات.

ابتكر الأفكار، اعتمد على حسّك الإنساني، ومكتبتك الذهنية، اعرف لمن توجهها، فلكل جهة إنتاجية قيم وأهداف وقدرة تمويلية.

تطوير الفرضية

تتكامل الفكرة وتتماهى مع الفرضية في الصحافة الاستقصائية.

عند تناول فكرة تسرّب الأطفال من التعليم الابتدائي في بلد ما، سينظر كل منا إلى الفرضية من زاوية معينة، وهذا حقه، المهم ألا يلوي عنق الحقائق والوثائق لتوافق نظريته، وأن يصيغها ضمن عبارة محددة، دقيقة، قابلة للقياس. هذه نماذج للفرضية:

- الفقر يجبر الأطفال على ترك الدراسة، والتوجه إلى العمل.
- الثراء الفاحش لأسر الأطفال يضعف اهتمامهم بالتعليم.
- توزّع المدارس في مناطق متباعدة، يصعّب الوصول إليها.
- مباني المدارس متهالكة، وخدماتها بائسة.
- قسوة المعلمين المفرطة مع الطلاب.
- رداءة مستوى التعليم ومخرجاته.
- انتشار وسائل التعليم عن بعد، كبديل للتعليم التقليدي.

على الصحفي أن يستوعب جميع الفرضيات المتاحة، كي ينتقي ويقرّر أيها الفرضية الرئيسية. وحينها قد يعرض كل هذه الفرضيات في فيلمه وصولاً إلى الفرضية التي يسعى لإثباتها، أو يتناول فرضية وحيدة فضّلها على بقية الفرضيات.

عملية تقييم الفرضية متواصلة، قبل إنجاز التحقيق وأثناءه وبعده. والمطلوب الآن أن نثبت الفرضية، أو نعدّلها، أو نلغيها.

كيف ندعم الفرضية؟ نبحث في المصادر، نستشير الخبراء، نتواصل مع المتضررين. وأخيرًا نتواصل مع من نعتقد أنهم من المؤثرين، وقد يكون بعضهم عدوانيًا، أو على الأقل ليس من صالحه العمل على هذا الموضوع.

لذا، حين تحقق في فساد مصنع، لا تذهب إلى النواة، لا تبدأ بالمدير الذي قد يكون مصدر المشكلة.. ابدأ من الأطراف، من أشخاص يحبون الثرثرة، أو آخرين تركوا المصنع. نحن في هذه المرحلة من العمل نختبر صلاحية الفرضية، لذا علينا أن نتوازن في التواصل مع المتأثرين والمؤثرين، فلا نحرق الموضوع، ولا نعتمد عليهم دون القيام بمسؤولياتنا. لا تكن مثل طالب يتوجه إلى صديقه ليلقّنه الواجب المنزلي، قبل أن يجتهد هو في ذلك.

يقول المخرج جان لوك غودار: «لا يهم من أين تأخذ الأشياء، بل إلى أين تأخذها»، هذا ما يخلق الفكرة الجديرة بالمشاهدة.

إعداد تصوّر الفيلم

إذا ما استقرّت الفكرة وفرضيتها في وجدان الصحفي، أحبّها، وجدها غريبة، صادمة، تثير الفضول، يبدأ بعدها البحث عن الطريقة المثلى ليخرج من بين فرث المشاكل، ودم الجرائم، تحقيقًا خالصًا سائغًا للجمهور.

هنا تبرز قيمة التصور الأولي ومقترح الفيلم، الذي يعزّز أساسات المشروع، ويحدّد مسار الإنتاج، بناء على المعلومات التالية:

1. العنوان

اسم الفيلم يعطي الدلالة التعبيرية لموضوع التحقيق، ويربطه في ذهن المشاهد بصياغة مختصرة، يسندها الذكاء والتشويق.

يجب أن يكون في البال مبكرًا، حتى لو اقترح بشكل أولي.

تحرص البرامج التحقيقية على الأسماء المحمّلة بالغموض، التي تلعب على الكلمات ومفارقاتها، دون تعقيدات ومبالغات لغوية.

برنامج الجزيرة القديم «سري للغاية»، يعدّ رائد البرامج الوثائقية الاستقصائية في العالم العربي، وقد أنتج أكثر من 20 عنوانًا. لاحظ أسماء بعض حلقاته: «العبور إلى المجهول»، «البحث عن الصوفية»، «الحديث مع العدو»، «الطريق إلى 11 سبتمبر»، «تاريخ للبيع»، «رحلة البطوطي»، «الولايات غير المتحدة».

2. النوع الفكري

يحدّد المجال الموضوعي العام لنقاشات الفيلم: التاريخ | السياسة | الاجتماع | الاقتصاد | الصحة | التعليم | العلم | الدين | الفن | الثقافة | الرياضة | البوليس | البيئة | الشخصيات وما يحيطها من جدل وأسرار. وهذا ما يجعله يفرز الجمهور، وجهات الإنتاج والعرض.

3. الجمهور

تستهدف الأفلام الاستقصائية الجمهور ليس لمجرد استقطابه، وإنما كي يتحرك ويشكل رأيًا ضاغطًا في اتجاه فرضية وهدف الإنتاج. يقول الكاتب البريطاني جورج أورويل: «الأمل يكمن في عامة الشعب»، لذا فإن دراسة جمهورك، واحترامه، وتحديد التركيبة المثلى للتأثير فيه، تضعه إلى جانبك.

يفضّل تصنيف جمهور التحقيقات الوثائقية بالتقاطع بين المنطقة الجغرافية، والشرائح المجتمعية التي تنقسم إلى: الجمهور العام | المرأة | الشباب | العمال | النخب | أصحاب القرار. وهناك تصنيفات فرعية حسب: الجنس، المرحلة العمرية، المستوى العلمي وغيرها.

الادّعاء بأن الفيلم موجّه للشباب، وهو يسير بسرعة السلحفاة في عصر السرعة، وبما يتعارض مع نشاطهم وروحهم الوثابة، ثم إغفال أدوات شبكة الإنترنت ومواقع التواصل التي ترعرعوا فيها؛ فهذا ما يمكن وصفه بضياع البوصلة.

يا صديقي؛ ما فائدة أن تطهو طعامًا لا يأكله أحد؟

في حلقة «جواز سفر للقتل» من برنامج «بانوراما»، تحدد BBC جمهورها البريطاني العام بالدرجة الأولى، حين بدأت نص التعليق: «تقول حكومتنا إن إسرائيل زوّرت جوازات السفر البريطانية التي استعملها القتلة، فكيف فعلوا ذلك؟».

غطّت الصحفية مارثا مندوزا قصة صيادين استُعبدوا في إندونيسيا، وأجبروا على العيش دون مستحقات مالية، وفي أقفاص على متن قوارب، بعضهم لم يغادرها منذ 20 سنة. خلال عام ونصف من العمل تمكّنت من مقابلة بعضهم، ثم من خلال متابعة الأسماك التي يصطادونها والتي تصل إلى مطاعم أمريكية، استطاعت التأثير في الرأي العام، وكانت النتيجة تحرير 2000 شخص. هذه النتيجة الرائعة ما كان لها أن تتحقق لو لم ترتبط بالجمهور، الذي يمكنه تشكيل عامل ضغط. وهنا تم استهداف المواطن الأمريكي عن طريق الطعام الذي يأكله، وهو الذي عرف أثر العبودية في تاريخ دولته.

4. المدة

تُضبط مدة الفيلم بما يوافق ثراء الموضوع، وجدوى الإنتاج. التحقيق الوثائقي يتطلب درجة عالية من التركيز الذهني، ويفضل ألا تطول مدته، وبما يراعي المدة المثالية للعرض في القنوات. أنتج برنامج «فرونت لاين» فيلمًا عن آثار الحرب على الشعب اليمني، مدته لا تزيد عن 11 دقيقة.

البرنامج الأمريكي «أطباء تحرّيون» أو «تحقيقات طبية» الذي يتعمّق في ملفات الطب الشرعي لتصوير كيفية حدوث الجرائم، وكشف الفاعلين، بدأ إنتاجه عام 1995، وبمدة نصف ساعة للحلقة، واستمر لأكثر من 20 عامًا، وقد عرض في 142 دولة.

5. عدد الحلقات

تتعدد حلقات البرنامج إذا كان متشعب المحاور والعناوين، مع ضرورة مراعاة الميزانية المالية، ومدة الدورات البرامجية، ومواعيد البث المعتمدة لدى جهة العرض.

يمكن للبرنامج أن يشكل سلسلة مترابطة متصلة الحلقات، كما في «جرائم المحيطات»، أو موحدة العنوان منفصلة الحلقات، تمثل كل منها فيلمًا مستقلاً، مع احتفاظه بهوية البرنامج الموضوعية والفنية، كما في «تحقيقات الكوارث الجوية»، وكلا البرنامجين من إنتاج ناشيونال جيوغرافيك.

عدد الحلقات هو بمثابة العمر الذي نمنحه للبرنامج. ويعتبر برنامج «بانوراما» أطول برنامج وثائقي معمّر عبر التاريخ، بدأ بثه عام 1953، وما زال عرضه متواصلاً على شاشة BBC.

6. الفكرة العامة والهدف

تعريف مختصر بموضوع الفيلم ومميزاته، وتوضيح فرضية النقاش التي تشكل هدف الإنتاج. ويفضّل ألا يزيد الشرح عن 3 أسطر، لتمكين القارئ من استيعاب فكرة الفيلم بسرعة ودقة.

هذه نماذج لصياغة أفكار التحقيقات:

- برنامج الجزيرة «نهايات غامضة»: «استقصائي ذو طابع جنائي، يحقّق في ظروف الوفاة الغامضة لشخصيات معروفة، من خلال الاعتماد على مشاهد التمثيل وإعادة تفكيكها، بما يوضح ملابسات روايات الموت المختلفة، محاولاً تتبع الجهات المتورطة، أو التي تخفي حقيقة ما حدث».

- برنامج نتفليكس «فاسد»: «تغوص هذه الحلقات الوثائقية في أعماق سلسلة الإمدادات الغذائية، للكشف عن حقائق بغيضة، وفضح قوى خفية تشكّل طبيعة الأغذية التي نتناولها».

- برنامج ناشيونال جيوغرافيك «أسرار التاريخ»: «تقصّي أحداث غامضة، وشخصيات مثيرة، وأسئلة مهمة من الماضي ظلّت بلا أجوبة، مع التركيز على الملياردير المعتزل للأضواء هاوارد هيوز، وتجارب وكالة الاستخبارات التي تحظى بسرية كبيرة، ومفجّر الجامعات وشركات الطيران المعروف بأونابمبر، وقصص شهيرة قليلة عن رحلات أبولو التابعة لناسا».

- فيلم BBC «حرب إيران السرية»: «وثائقي يحقّق في الدور السري لإيران في الحرب الدائرة بسوريا.. تمكّن فريق BBC من الحصول على لقطات سرية نادرة من مستشارين عسكريين في الحرس الثوري الإيراني، تظهر التدريب والقتال جنبًا إلى جنب مع المليشيات الموالية للحكومة السورية قرب حلب».

7. الشكل الفني

نتخيّل الفيلم بصريًا، من خلال توضيح خصوصية الإخراج، والعناصر الفنية المستخدمة، مثل: الأرشيف | المقابلات | التصوير السري | التعليق | مقدم للبرنامج أو فريق تحقيق | انتحال الصفات | الرسم 2D أو 3D | المجسمات والنماذج المصغرة | التمثيل | الموسيقى التصويرية..

برنامج ناشيونال جيوغرافيك «ما قبل الكارثة» يحدّد شكله الفني كما يلي: «أدواتنا: علم التشريح الجنائي، أفلام من الأرشيف، شهود عيان، بالإضافة إلى شهادة خبير على معرفة بالقوانين، نجمعها ليرسم لنا الحاسوب سيناريو تخيليًا للحظات الأخيرة التي سبقت كوارث عالمية، في زمننا الحاضر».

أما فيلم الجزيرة «مخبر القاعدة» فارتكز على المقابلة الرئيسية مع المصدر اليمني، ومقابلات قليلة مع خبراء غربيين، بالاستناد إلى اللقطات الأرشيفية القيمة، واللقطات الرمزية لفوهة السلاح وعبوات الغاز والأفعى، إضافة إلى لقطات ومشاهد إعادة التمثيل السريعة.

من المهم أن نفكر بأسلوب وهوية التقديم. لاحظ الصحفية سلام هنداوي في برنامج الجزيرة «المسافة صفر»، وهي تلاحق الصعب، تقابل الضيوف في ميدان بيئتهم الخطرة، تتحدث إلى المشاهد بعفوية، وتظهر بإطلالة تناسب طبيعة المواضيع التي تغطيها، دون مبالغة في الملابس والمكياج.

8. العناصر والمصادر المؤكدة

حين تمتلك في بداية المشروع عناصر حصرية، تحقّق سبقًا في ظهورها الأول، فهذا مما يزيد ثقتك بخطواتك، ويقنع جهات الإنتاج بقدراتك. ومن هذه العناصر: الظفر بمصدر استثنائي، والحصول على تسريبات مهمة، وتصويرك السري لموقع خطير.

«داخل أقسى سجون العالم» برنامج نتفليكس الذي تمكّن من تصوير ومعايشة الحياة في السجون الصعبة، ومقابلة أخطر المجرمين. قدّم الموسمين الثاني والثالث الصحفي رافاييل روو، الذي قضى 12 عامًا في السجون البريطانية، إلى أن تم إثبات براءته من جريمة قتل لم يرتكبها.

هنا تبرز قيمة المراجعة الذاتية والتساؤلات التي يطرحها المنتج الصحفي على نفسه: ما هي العناصر الخاصة المتوافرة حاليًا؟ وما هي المصادر المفتوحة التي تدعمها؟ أين وكيف سأجد العناصر الأخرى التي تدعم البحث؟ هل لدي الإمكانيات الفنية والتقنية واللوجستية الكافية لبدء التحقيق وختامه؟

نتطرق هنا للشخصيات التي نفترض أهمية وجودها معنا في التحقيق. برنامج «أطباء تحريون» أو «تحقيقات طبية»، يشير في موقعه على الإنترنت www.forensicfiles.com إلى أعضاء فريق التحقيق الجنائي والطب الشرعي من مختلف الخبرات والتخصصات العلمية: الطب النفسي، التشريح، الأمصال والحمض النووي، الصيدلة، السموم.

في فيلم «عبرا.. من أطلق الرصاصة الأولى؟»، تمكّن فريق برنامج الجزيرة «ما خفي أعظم» من الوصول إلى الشيخ أحمد الأسير القابع في سجن رومية، والحصول على إجابات حصرية. كما أجرى مقابلة مع مدير مكتبه المتواري عن الأنظار منذ اشتباكات منطقة عبرا جنوبي لبنان عام 2013، فضلاً عن مقابلة مع الفنان الهارب من القضاء اللبناني فضل شاكر.

9. دول ومواقع التصوير

فيلم الجزيرة «شاحنة الموت» الذي يتناول قضية العثور على جثث 71 لاجئًا في شاحنة قرب الحدود المجرية النمساوية، قابل 10 شخصيات (7 من عائلات الضحايا | محقق نمساوي | مدير الطب العدلي العراقي | خبير طب شرعي)، وتم تصويره في 5 دول: العراق (دولة أغلب الضحايا)، تركيا واليونان (بداية خط سير اللاجئين، وحيث ينشط المهربون)، والنمسا والمجر (الطريق الذي سلكه الضحايا، والمنطقة التي وجدت بها الشاحنة، ومجريات التشريح والتحقيق القضائي).

10. خطة الإنتاج الزمني

تحديد مدة الإنجاز بما يخدم نتيجة التحقيق.

فيلم نتفليكس «إكاروس»، حقّق لمدة 4 أعوام في قضية دعم الحكومة الروسية لبرنامج تعاطي رياضييهم للمنشطات المحظورة.

تفريغ خطوات العمل ضمن جدول زمني معقول، يمنحك فرصة السبق، ويحميك من تقلبات الواقع، ومنافسات سوق الإنتاج.

11. الميزانية المالية

كم تحتاج لإنتاج وثائقي تحقيقي؟ الكثير.. في العالم العربي بمتوسط 2000 دولار للدقيقة الواحدة، وفي الغرب أضعاف ذلك. «إكاروس» (121 دقيقة) أنتج بميزانية تفوق 5 ملايين دولار، وقد فاز بجائزة أوسكار الفيلم الوثائقي لعام 2017، وحرم روسيا من المشاركة في أولمبياد كوريا الجنوبية 2018.

نعم، غالبًا ستحتاج إلى ما يفوق طاقتك، لكن فكّر بما سيجلبه لاحقًا. فالأرباح قد لا يستوعبها حسابك البنكي، والأهم يكمن في قيمة ما توفره لخزينة الدولة، ليصرف بحق على المواطن.

المطلوب هو التحديد الدقيق لتكلفة البنود الإنتاجية: فريق العمل | المعدات التقنية | العمليات الفنية | حقوق الملكية الفكرية | مصاريف السفر والإقامة | الخدمات الإدارية المساندة.

يمكن أن تقدم ميزانية عامة، على أن تفصّلها لاحقًا قبل بدء الالتزامات المالية، ولكن تفصيل الميزانية في هذه الخطوة من عمر الفيلم هي من سمات المحترفين العارفين بخبايا الإنتاج الوثائقي.

مع الإشارة إلى أن تكاليف الإنتاج تخضع للمحددات التالية في دول التصوير والإنتاج: معايير السوق والعرض والطلب | مستوى المعيشة | الظروف السياسية والأمنية | حرفية العاملين..

تأكّد من توافر المبالغ المطلوبة، حتى لا تجد نفسك في السجن مع من تلاحقهم في فيلمك.

12. ملحقات

عند الرغبة في استقطاب الدعم والتمويل من جهات مختلفة، يمكن أن تضمّن مشروع الفيلم تصاريح التصوير في الأماكن الصعبة، ورسائل الموافقة على مقابلة بعض الشخصيات الهامة، وروابط استطلاعات الرأي والدراسات البحثية المستفيضة، إضافة إلى السيرة الذاتية المختصرة لصانع الفيلم، مع عينات من الإنتاجات السابقة لفريق العمل.

بعد أن تجيب على هذه التساؤلات، وتنجز مخطط المشروع، قرّر أن تتحمل مسؤولية وتبعات إنتاج ونشر التحقيق.

واعلم، أنك إن قمت بعملك بدقة، ستخدم وطنك، وتنجو بمهنتك، وحتمًا ستصنع أصدقاء أكثر من الأعداء.

المعالجة الوثائقية التحقيقية

«إيجاد الأفكار هو الجنة، معالجتها هي الجحيم»، هكذا يؤكد الكاتب البلجيكي موريس ميترلينك أهمية المعالجة.

قد يملك الصحفي فكرة براقة، سرعان ما يطفئها حين يتناولها. حسب كتاب «الخطابة» لأرسطو: «ليس كافيًا أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي».

فيلم «الكوليسترول، المطلوب رقم 1»، إنتاج تلفزيون CBC الكندي، يعالج تحقيقًا طبيًا في قالب بوليسي، ويشوّق المشاهد بالحديث عن مسرح جريمة، وضحية، وقاتل متسلسل، وعصابة. كما يستخدم رسومًا متحركة لتيسير الفهم، والتخفيف من تخصصية الموضوع.

تشكّل المعالجة دليل إنتاج الفيلم، وخلاصة مضمونه المعلوماتي. تبدأ ببحث أكاديمي ميداني موسع في كل ما يعني الفيلم فكريًا، ودراسة ما يتوفر من مصادر ومستندات ومواد أرشيفية، ثم تضيق المعالجة تدريجيًا خلال عملية الإعداد، حتى تحدّد مسار التحقيق، وطريقة تصوير الموضوع، وسرده فيلميًّا.

المعالجة الوثائقية هي مسودة السيناريو، الخطوط العريضة التي تقود الفيلم، وتحدّد كيف سنحول المعلومات والأفكار إلى مرادفات بصرية. هي ليست مجرد بحث فكري، ولا قائمة لقطات التصوير التفصيلية، كما أنها ليست السيناريو النهائي للفيلم.

تبرز قيمة التحقيق الوثائقي فيما يقدمه من أدلة وقرائن ملموسة. فيلم «مقتل بافل» من إنتاج مشروع الإبلاغ عن الجريمة المنظمة والفساد (OCCRP)، حقّق

في تفجير سيارة الصحفي بافل شيريميت في كييف عام 2016، من خلال فحص مواد 50 كاميرا مراقبة.

ولأن الإعلام هو «فن الانتقاء»، وبمعنى أكثر قسوة «فن الإلغاء»، فالمطلوب أن نعرف كل شيء عن موضوع التحقيق، ندرس الظروف المختلفة، نلاحق كل المصادر، نحيط بكامل الفرضيات الممكنة، نبالغ في التفاصيل، نوغل في التعقيدات، نشكّ في كل شيء، حتى نتمكن من طرح فرضيتنا، وخدمة جمهورنا.

فيلم «جريمة في إسطنبول»، ضمن برنامج BBC «عن قرب»، وأثناء تحقيق الصحفي مراد بطل الشيشاني عن جرائم قتل ضد لاجئين معارضين للنظام الروسي، وقعت جريمة قتل المعارض الشيشاني رسلان إسرابيلوف جنوبي إسطنبول. توجه الصحفي إلى الموقع، دخل بيت الضحية وقابل عائلته، وتقفى خطى فريق الاغتيال الروسي ليفهم كيفية تنفيذ العملية. وقبل ذلك كان يجب العودة إلى الماضي لكشف جذور الصراع الشيشاني الروسي، وربطه بالحادثة. كما استفاد من نظام تحديد المواقع في السيارة المستأجرة لكشف الأماكن التي زارها القتلة قبل أسبوعين من تنفيذ عملية اغتيال 3 شيشانيين، واستفاد من كاميرات الحراسة، ومن دفتر مذكرات أحد المغدورين. كما تابع قوائم الإنتربول، وواجه السلطات الروسية والتركية بنتيجة التحقيق.

التحقيق حرفة تتبّع فتات الخبز، نحن مطالبون بجمع كامل قطع الأحجية، حلّ شفرات المواضيع، وبعث الروح فيها. هذا ما نفعله في هذه الخطوة: نبحث ماذا حدث بالضبط؟ من له علاقة؟ متى؟ أين؟ لماذا؟ ونتعمق في السؤال الأهم في التحقيق: كيف؟

إننا نختار مشاهدة الأفلام التحقيقية التي تضيف إلينا. ضع نفسك مكان المشاهد، لا تقل لي ما أعرفه، ابحث في المحاور المعتمة، عن زاوية استثنائية، برؤية غير معتادة. في الفيلم البرازيلي «باص 174»، نقلت القنوات

الإخبارية بثًا حيًّا مباشرًا لتفاصيل حادثة خطف الحافلة في ريو دي جانيرو، لكن المخرج اختار التركيز على شخصية الخاطف، وتحليل دوافعه.

عرضت ناشيونال جيوغرافيك حادثة سقوط البلاك هوك الأمريكية في مقديشو عام 1993 في برنامجين: البرنامج الوثائقي «حتى آخر جندي» حيث روت القصة في حلقة «عملية بلاك هوك داون الحقيقية»، بينما في حلقة «سقوط الصقر الأسود» من برنامج «ما قبل الكارثة» الوثائقي التحقيقي، أجابت عن فرضيات أسباب ذلك، وكيف سقطت المروحية. المعالجة هي التي أحدثت الفرق.

المعالجة تصنع الفكرة التحقيقية المتفوقة، ولذا تمنح حقوق الملكية الفكرية بناء على تفاصيل المعالجة.

تطوير المعالجة

هنا نبحث أكثر، ننحت الفرضية التي سنرويها من خلال القصة، نمتلئ بالمعلومات والحقائق، لا نترك مصدرًا إلا ونعرف ماذا نريد منه. نعرف الطريق، ونعرف كيف نوازن السير عليه. نضع قاعدة؛ لا حدود، لا سقف.

تحسم المعالجة قيادة دفة الفيلم الموضوعية والفنية، وهذه بعض النصائح العملية فيما يتعلق بالمهام المطلوب القيام بها خلال هذه الخطوة الهامة في بناء الفيلم التحقيقي.

خطة العمل:

- حدّد هدفك، ضع خطة متكاملة المراحل، واضحة الإجراءات. وقرّر أن تعرضها في بداية الفيلم لمزيد من الشفافية، وربما التشويق في الخطوات الاستثنائية التي نفّذتها، أو المخاطر والتحديات التي واجهتها خلال العمل.

- ضع خطة بديلة، اربح من المتغيرات، أنت تسبح في محيط متلاطم الأمواج، لا بد أن تحدث مفاجآت، كيف تطوّعها لصالحك؟ ما هي إجراءاتك الاحتياطية؟

قد يرفض مسؤول مقابلتك بحجة سفره إلى مؤتمر دولي، هذا يمنحك قرارَ أن تريه نفسك هناك، تطلب إجراء المقابلة على هامش المؤتمر، أو تواجهه بالسؤال أمام الجميع، وإذا ما واصل الرفض، واصل البحث عما يمكن عرضه في الفيلم.

- استعن بالكتمان، لا تروّج صورتك على فيسبوك وأنت في منطقة خطيرة، لا تثر ضجة، لا تثرثر وتلفت النظر سريعًا.

دع سيارة إنجازك تسير، ولا تستبق وضع العوائق أمامك على طول الطريق.

- وثّق مراسلاتك المهنية مع جميع الأطراف.

- احرص أن يرافقك مستشار قانوني في كل مراحل الإنتاج.

البحث الأكاديمي والميداني:

- تغلّب على الجهل، اعتكف على البحث التفصيلي من مختلف المصادر والمراجع والدراسات، في كل واردة وشاردة.

- ارجع إلى الماضي لتعرف السياق والبدايات التاريخية، كي تفهم وتُفهم المشاهد تطوّر القصة، وعلاقتها بالحدث.

- انزل إلى الشارع، لا تتنازل عن البحث والاستطلاع الميداني الذي يقرّبك من نضرة الحياة، ويمنحك فرصة أن تكون مصدرًا طازجًا ورئيسيًا للمعلومات.

- ضع فرضيات القضية أمامك على الطاولة، افعل مثل أحد الأصدقاء، علّقها على جدران غرفة نومك، اكتبها على زجاج نافذة مكتبك، قرّر أن تطرحها في الفيلم واحدة تلو الأخرى، نفيًا أو تأكيدًا، أو حدّد فرضيتك الرئيسية التي ستعرضها في كل الفيلم.

- لا تعجز، احصل على المعلومة التي تبحث عنها، حتى لو حفرت لها نفقًا، أو بنيت لها جسرًا.

- نقّب حيث لا يفعل الآخرون، تفقّد الشوارع الفرعية عندما تكون هناك عملية سرقة بنك في الشارع الرئيسي.

- الشيطان يكمن بعدم ملاحقة تفاصيل التحقيقات. تمكّن الخبير جيمس بافن من كشف مصادر السلاح الذي يصل جنوب السودان لتغذية النزاعات من خلال مسح الرقم التسلسلي للأسلحة الخفيفة، وقد حدّد فترة البحث بين عامي 2007 و2009.

- فكّر بالقياسات والمسافات والأبعاد والأوزان، استفد من النظريات والتجارب العلمية. مثلاً؛ تحليل المياه الصالحة للشرب، من أكثر من منطقة في البلاد، في فترة زمنية محددة، وفي أكثر من مختبر ومعهد وطني ودولي.

فيلم «عبيد الموضة» تابع فحصًا كيميائيًّا لجلود أحذية تحوي مواد سامة، وغير متوافقة مع المعايير الأوروبية.

- كن نزيهًا، توازن في تناول كل ما له علاقة بالموضوع، من قريب أو بعيد. كل من يذكر اسمه في مقابلة أو وثيقة أو تسريب، عليك أن تتواصل معه، وتضمّنه في تحقيقك.

في فيلم «أثير الكراهية»، حققت BBC في القنوات التلفزيونية التي تساهم في تأجيج الطائفية الدينية، سواء أكانت بتوجهات شيعية أو سنية، وسواء كان ذلك في العراق أو الكويت أو بريطانيا.

وفي فيلم «حلايب.. المثلث الأصفر» من برنامج «المسافة صفر»، حرصت الجزيرة على عرض وجهة النظر المصرية حتى وهي ممنوعة من التصوير في مصر، لذا ألحّت بالاتصالات الهاتفية مع أكثر من شخصية.

- جرّب ولوج الأبواب المفتوحة قبل أن تتوجه إلى الصعب، واعلم أن الكثير من المعلومات متوافرة ومتاحة، لكن لم يسأل عنها أحد، حتى ظنّها البعض أعلى درجات الخطر.

- اجمع كل المعلومات، صنّفها حسب أهميتها وجدارة مصدرها، تأكّد من اكتمال خط نقاش قصة الفيلم.

لدينا مهرب الآثار الذي يمررها عبر الحدود، ولدينا الموزع أو الوسيط، ولدينا المشتري، لكن من هو التاجر الذي باعها؟ ومن الذي نقّب عنها؟ ومع من يعمل؟ هل هناك من سهّل عملية التهريب أو تغاضى عنها؟ وكم الثمن الذي تقاضاه كل طرف؟ سلسلة لا تتوقف من الأسئلة والمعلومات، قد لا نعرف بعضها، لكننا في التحقيق نسعى، ونوثّق محاولاتنا.

- تابع مواقع الإنترنت، احتفظ بروابطها، حمّل الموقع لديك إذا كان هو دليلك، فصاحبه قد يزيله إذا علم بعملك، أو بعد نشر فيلمك.. حينها ستقول: الدليل بيدي، وإخفاؤه يزيد من قوة حجتي، وقد يضيف تهمًا أخرى للجهة المعنية.

- استثمر وسائل التواصل الاجتماعي، وضخّم رصيد معلوماتك، شرط التحقق من كل ما ينشر، «ليس كل ما يلمع ذهبًا».

تحليل منشورات المواطنين السوريين على الفيسبوك قد يساعد في جلب مجرمي الحرب السورية المتخفّين في أوروبا إلى العدالة.

تغريدة تويتر لمواطن بسيط نجا للتو من حادث تحطم طائرة، قد تفتح تحقيقًا ينتهي بإيقاف شركة الطيران، أو إقالة المسؤولين.

قامت جامعة كارديف البريطانية بجمع وتحليل 1.6 مليون تغريدة تتعلق بأعمال شغب لندن عام 2011. حدّد الباحثون موقع وزمان ومحتويات التغريدات التي تفيد بوجود مشكلة قبل إبلاغ الأمن، مما يساعد في التنبؤ بأماكن وقوع أحداث أخرى.

- نظّم نتائج البحث، ابنِ قاعدة معلومات واحتفظ بها، وبنسخٍ منها في مكان آخر، كي تراجعها بسهولة عندما تريد. إذا قفزت عن هذه المهمة، ستتعثر لاحقًا. هذا التنظيم يتيح إيجاد الثغرات في البحث.

- إذا كانت الحقائق ترفض فرضيتك أو تناقضها، اقبلها، واصنع فرضية جديدة.. غالبًا ستجد أكثر مما تتوقع.

المصادر البشرية:

- ارسم خارطة مصادرك البشرية العامة والخاصة بموضوع التحقيق، بحيث تكون كافية للبدء، والتقدم، والوصول.

رتّب الشخصيات حسب أولويتها، صنّف العلني والسري. في فيلم عن العبودية، سيتصدر رأس القائمة الأشخاصُ الذين يمارس عليهم ذلك، ومن يستعبدونهم بغير حق، ثم أطراف المجتمع، والجهات الرسمية، والمؤسسات الحقوقية.

- لا حصانة لأحد، الكل موضع تحقيق. أكّد الفيلم الروائي «سبوت لايت» أو «بقعة ضوء» على الطريقة التي انتهجها فريق التحقيق الصحفي في قضية الاعتداءات الجنسية على الأطفال في الكنيسة الكاثوليكية، حيث بادر كل منهم بالبحث عن مصادره المعروفة، بدؤوا بالأسهل، بحثوا عن خيارات أخرى، حين علموا بوجود جمعية للضحايا، قابلوا ممثلهم، ولتوجس محرّر صحيفة بوسطن غلوب من مبالغة ممثل الضحايا، طالب صحفييه بالتحقق منه.

- لا تقلّل من قيمة أحد، فبواب العمارة قد يعدّ مصدرًا ذهبيًّا لمعرفة تحركات قاطني الشقة المشبوهة.

- احذر أن تملك مصدرًا بشريًا واحدًا فقط، حينها قد يميل بك إلى أجندته الخاصة، أو قد يحشرك في الزاوية، ويثقلك بشروطه، ويتدلّل عليك كما لو كنت موقع طلبات دوت كوم.

- أفضل مصدر للمعلومات هو المؤسسات الحكومية، نعم هم ليسوا أصدقاءك، ولن يكونوا.. إن لم يوقفوك فعلى الأقل لن يرحبوا بك.. استخدم ذكاءك لإدارة هذه العلاقة المعقدة.

- أخبر المصدر ماذا تفعل، لا تكذب بشأن الجهة التي تعمل لها، في المقابل لا تعط معلومات كاملة عن المشروع.

- حاذر من المبالغة في العلاقة مع المصادر، أو من التواصل فقط عند المصلحة، لا دعوات ولا حفلات، لا جفاء ولا انقطاع.. توسّط.

- بعض المصادر كوابيس حقيقيّة، لن يكتفوا بعدوانية التعامل، بل قد يكيلون لك التهديدات ويسعون لإيقافك عن العمل.. اعرف كيف تتعامل معهم.

- احرص أن تكون لديك مصادر خبيرة، قادرة على إرشادك في قضايا تخصصية، وتفسير المعلومات المعقدة الواردة في الوثائق التي تحصّلت عليها. وكيل العقارات أو وسيط الأملاك يدلك على سجلات الملكية الشخصية، بينما خبير القانون الدولي يفيد في تحقيق عن الأملاك الفلسطينية.

- استفد من المصادر المفتوحة لترشيح الخبراء، منها مثلاً موقع (Global Experts) الذي يتضمن بيانات أكاديميين ومحللين وإعلاميين ومسؤولين سابقين، ويمكن البحث عن سيرهم الذاتية، وعناوين التواصل معهم.

- استفد من الأدوات التحقيقية في البحث عن المصادر عبر الإنترنت، مثل (PeoplefindThor)، للعثور السهل على الشخصيات في الفيسبوك. كما تشكل أداة (PiPi) محركًا لمعرفة تفاصيل أكثر عن الأشخاص. كما يمكن استخدام قاعدة بيانات (OpenCorporates) للبحث عن الشركات وموظفيها في جميع أنحاء العالم.

- اعتمد أساليب «حشد المصادر» أو «التعهيد الجماعي». ادعُ الجمهور لمشاركتك المهمة التحقيقية، عبر تمرير قصة أو خبر من التحقيق الذي تشتغل عليه، أو شكّل مجموعة على شبكة الإنترنت لتنظيم التعاون الجماعي مع جهات وصحفيين آخرين، والاستفادة من المعارف المختلفة، وتنوع مواقع العمل الجغرافية.

نشرت الغارديان قاعدة بيانات فواتير أعضاء البرلمان البريطاني، التي تضمنت أكثر من 170 ألف وثيقة، ثم استقطبت ما يزيد عن 20 ألف متطوع ليساعدها في البحث عن معلومات تستدعي التقصي.

كما أطلقت نيويورك تايمز صفحات فيسبوك لاستقبال تعليقات وخبرات المواطنين في مجال الرعاية الصحية داخل الولايات المتحدة.

التعامل مع المصادر غير المعلنة:

تمثّل المصادر المجهولة أو مخفية الهوية تحديًا كبيرًا للصحفي والمؤسسة. لا تعرّف بي وسأعطيك معلومات عن المريخ، سأصبح مفتيًا وطبيبًا ومهندسًا ونجارًا وصانع ذرة، ألا يفعل البعض ذلك؟

- ابذل جهدك في إقناع المصدر بالظهور العلني، أوضح له أهمية ذلك، اسأله عن أسبابه الخاصة لإخفاء هويته، وقلّص المخاطر التي يخشاها، خاصة ما يتعلق بأمنه الشخصي.

فيلم «تجّار الحرب» الذي أنتجته شبكة إعلاميون من أجل صحافة استقصائية عربية (أريج)، لصالح التلفزيون الألماني DW، عن مافيا الاتجار بالأعضاء البشرية للاجئين في مصر، أخفى هوية اللاجئ السوري، بينما ظهرت هوية اللاجئ اليمني كاملة.

- ضع سياسة داخل المؤسسة لنشر المعلومات غير معرّفة المصادر، كضرورة اعتماد المحرر المسؤول، وتأكيد المعلومات من عدد محدد من المصادر المستقلة الأخرى، أو تطابق معلومات المصدر السري مع الوثائق والأرشيف.

- ناقش الشروط مع المصدر بالتفصيل الممل، حدّد الإيجابيات والسلبيات، المخاطر والتحديات، واحرص ألا تخضع له.

المهنية الصحفية تقتضي عدم قبول الاشتراطات، وإنما تفهّم التخوفات.

قد تتفق معه على تمرير المعلومات بالتحقيق مع إخفاء الاسم والصورة الشخصية، وذكر بعض المعلومات التعريفية التي تؤكد اطلاعه وعلاقته بالموضوع، ولا تؤدي إلى التعرف على شخصه،

فتقول: «حسب مسؤول في وزارة الداخلية، عمل 20 سنة في قضايا مشابهة، طلب إخفاء هويته..».

وأقل التوثيق؛ إخفاء الاسم والصورة والمعلومات التعريفية، وذكر رغبة الشخصية في ذلك.

وفي حالات نادرة، قد تأخذ منه المعلومات، ولا تمررها بالفيلم، على اعتبارها «غير صالحة للنشر»، وإنما الاستناد عليها والسعي لتأكيدها ونسبتها لمصادر مختلفة.

- لا تعط المصدر وعدًا قبل التأكد من خلفيته ونواياه، فقد يكون مدفوعًا لتضليلك، أو لابتزاز جهة ما عن طريقك. لا تسمح لأحد بأن يستخدمك بوقًا، يحوّلك إلى مطية، مهما كان الثمن.

- إذا ما وعدت بالحفاظ على سرية المصدر، كن رجلاً، لا تفصح عن هويته، حتى لو كلّفك ذلك السجن. قالت مشاركة في دورة الصحافة الاستقصائية: «حرام، قد يعذبون الصحفي..»، وأنا أقول إن كنت تخشى ذلك، لا تتعرف بشكل دقيق على وجه المصدر، لست بحاجة لذلك، اجعله يخفي تفاصيله.

الوثائق والسجلات:

الأهم من الحصول على الوثيقة هو كيفية التعامل معها، وعدم الضياع في تسونامي معلوماتها الهائلة، وربما المتخصصة.

- الوثيقة وحدها لا تصنع تحقيقًا، حتى وإن كانت مسربة. التسريبات ليست هي الصحافة الاستقصائية، لكنها إحدى أدواتها الخاصة التي تبعث الحياة في القضية، وتستخدم كصافرة بداية لتجميع وربط

الجزئيات، وتشبيك النقاط والمعلومات التفصيلية، بين الوثائق فيما بينها، وأيضا مع المصادر المختلفة.

- دلّل الوثيقة، عالجها برقميّ، اجمع بياناتها، نظّفها، صنّفها وافرزها، ادرسها وحلّلها.

- أكّد مصدر الوثيقة عبر التواصل معه، ومعرفة طريقة وصول الوثيقة إليه، وتوجيه استفسارات ذكية تنم عن معرفته الجيدة بالوثيقة، وحسم ملكية الوثيقة وحقوق النشر، وبالتالي تدقيق صفات المصدر المثالي: أصلي، دقيق، موثوق، محايد.

كما يفضّل استضافة المصدر في الفيلم، أو على الأقل نسبة الوثيقة له خلال التحقيق.

- الاطلاع الكامل على الوثيقة، دراسة كل محتوياتها. لا تمر على السطح، ولا تستعجل الخلاصات من أول سطرين.

- الوقوف عند محتويات الوثيقة: التاريخ، المضمون، الأسماء، التوقيع، الشعار، التنسيق.. تأكد من عدم وجود أي ثغرات.

يحدث أن تجد وثيقةً موقعةً بتاريخ معين، بينما المذكور في التوقيع غادر منصبه قبل ذلك بفترة طويلة.

فحص صحة الوثيقة وصحة ما يرد فيها، يقع على عاتق من ينشرها. إذا شككت بنسبة 1% فاتركها مباشرة.

عام 2004، نشر البرنامج الأمريكي الشهير «60 دقيقة» المستمر بثه منذ العام 1968 على قناة CBS، وثيقة ادعى أنها مسربة من الجيش

الأمريكي، وتكشف عدم استكمال الرئيس بوش الابن لساعات الخدمة في الجيش، لكن شبكات إخبارية أخرى طعنت في مصداقية الوثيقة، التي يبدو أنها طبعت على جهاز حاسوب، بينما كان الجيش الأمريكي يستخدم الآلات الكاتبة في ذلك الحين، مما أدى إلى فصل المنتجة وفريق البرنامج.

وعام 2016 اعتذرت قناة الجزيرة لجمهورية موريتانيا بعد نشرها وثيقة عن اتفاق مزعوم بين نواكشوط وتنظيم القاعدة، تبيّن لاحقًا أنها مزوّرة.

- مراجعة أهل الخبرة والاختصاص، والاستناد إلى تحليلهم العلمي المبني على معرفتهم بتفاصيل الوثيقة. لاحظ أن كثيرًا من الوثائق على مستوى عال من التخصصية، وبحاجة إلى مساعدة، مثل المستندات الطبية أو المالية.

- الحرص على تحديث المعلومات، ومتابعة تطورات ما تتضمّنه الوثيقة. قد نجد وثائق أخرى تدعم ما ورد في الوثيقة التي بين أيدينا، أو تلغيها. وقد تختلف الأحداث على الأرض بعد فترة من تاريخ الوثيقة. علمُنا بذلك ونقاشه خلال التحقيق، يمنحنا الواقعية والمصداقية.

صحافة البيانات:

- قرّب الأرقام من الجمهور، استخدمها بفاعلية في التحقيق.

ابحث عن استثناء أو نمط وتكرار ملفت في الإحصائيات.

قارن بين الأرقام الأعلى والأدنى.

راقب تغيّر الأرقام خلال فترات زمنية محددة.

ارسم علاقات بين المجموعات المتشابهة أو المتناقضة.

- اعتمد مقياسًا، مثل النسبة الفرعية من الإجمالي، سواء داخل السجلات نفسها، أو بمقارنتها بسجلات أخرى. يمكن القول بأن الأخطاء الطبية في المستشفى الفلاني تشكل 3% من مجمل المراجعات فيه، لكنها تشكل 40% من الأخطاء في مستشفى آخر، خلال نفس الفترة الزمنية.

- فكّر في طريقة عرض البيانات ضمن رسوم إبداعية.

في فيلم «حرب الديمغرافيا» ضمن برنامج «الصندوق الأسود»، قام فريق العمل بتوضيح التغيرات الديمغرافية في سوريا، بإنشاء خرائط للتوزيع السكاني لما قبل الثورة وبعدها، في مدينتي دمشق وحمص وضواحيهما.

المواد البصرية والمسموعة:

- أوصيك بالأرشيف خيرًا، شاهد كل ما يتوافر من مواد مصورة، ولا تملّ الاستماع للتسجيلات الصوتية. احفظها عن ظهر قلب، ستعينك، وترشدك، وتشدّ من أزر فيلمك.

حصرية المواد الأرشيفية تمنح القيمة التحقيقية لبرنامج «ما خفي أعظم».

- قبل أن تقول هذه مادة العمر، تحقّق منها.

لم تعد عبارة «الصورة لا تكذب» دقيقة، في ظل الضخ اليومي للمواد على شبكة الإنترنت. لذا وجب التأكد من مصدر المادة الأرشيفية، ودقة ما ينشره باستمرار، ومكان وجوده خلال الحدث.

لا تعدم وسيلة في التأكد من صحة الصورة بجميع عناصرها، ومحاولة مقارنتها مع صور شبيهة. اتجاه الظلال قد يعطي إشارة. وجود تكرار

لبعض المكونات بشكل شاذ قد يدل على فبركة الصورة. أما مادة الفيديو فقوانين الطبيعة والحركة والسرعة والاتجاهات؛ مفيدة.

المنطق البشري يساعد في تقييم الصورة. على سبيل المثال، يغدو الإتقان الفني في فيديو جريمة قتل مَوْطنَ ضعف. كما يثير الشكَّ تاجرُ السلاح المتحدّث ببراعة، كما لو كان ممثلاً يلقي كلامًا مكتوبًا أمامه.

- أتقنْ مجموعة الأدوات والبرامج المساعدة في فحص الصور. مثل خاصية البحث العكسي في (Google) أو (TinEye) لإيجاد أصل الصور الثابتة. كذلك (YoutubeDataViewer) أو (InVID) لفحص مضمون الفيديو.

للتبحّر أكثر، ينصح بالعودة إلى كتابيْ معهد الجزيرة: «البحث عن الحقيقة في كومة الأخبار الكاذبة»، و«دليل الصحفي للتحقق من الأخبار على المنصات الرقمية».

وهناك وكالات مثل (Bellingcat) و(Storyful) لفحص وتحليل منشورات وسائل التواصل.

- عند حصولك على مادة مهمة وحصرية، وثّق معلومات «تسلسل العهدة». كيف انتقلت ملكية الفيديو من شخص لآخر، حتى وصلت إليك، وما الذي يثبت حق الاستخدام.

نزاهة الفيديو، وصحة مسار العهدة، تمنحان المادة قوة قانونية.

كيف نصيغ المعالجة؟

هذا سؤال متكرر؛ ما من توصيف موحّد أو (فورمة) ثابتة لصياغة المعالجة. الإبداع لا يعلّب، واعتقد أن الأهم من طريقة العرض هو أن تحقّق المعالجةُ الهدف في شرح كيفية تحويل الموضوع أو القصة إلى فيلم تحقيقي، وفيما لا يزيد عن بضع صفحات.

من طرفي، أميل عند إعداد المعالجة إلى تضمين ما يلي:

- مقدمة عامة حول موضوع الفيلم، الجديد الذي سيقدمه، وفرضيات النقاش، وصولاً إلى الفرضية الرئيسية التي تشكل زاوية التناول.

- المحاور الفكرية، والمدة الزمنية التقريبية لنقاش كل محور بما يتناسب مع أهميته في خدمة الهدف، مع شرح مختصر لا يزيد عن بضعة أسطر لكل محور.

  يؤكد برنامج «نهايات غامضة» ضرورة تناول المحاور التالية في كل حلقة: حادثة الموت | التعريف السريع بالشخصية موضوع الحلقة | الرواية الرسمية للموت | روايات الموت المختلفة (أطول مدة للنقاش) | الجهات المشتبه بها.

- العناصر والمرادفات البصرية الفنية التي تخدم كل محور.

  من خلال تثبيت دول التصوير، وتحديد المقابلات الرئيسية، إضافة إلى عناصر الشكل الفني الأخرى: التصوير الخاص | الأرشيف | الغرافيك | التمثيل..

أشكال التحقيق

ونقصد بها آليات العمل التي تستخدمها الصحافة الاستقصائية، وتسعى من خلالها الأفلام إلى تحويل المعلومات إلى مرادفات بصرية، ومعالجة الحقائق بطريقة فنية. وللمنتج الصحفي أن يستخدمها منفردة، أو يصنع خلطته الخاصة.

1. البحث والتحري

يقوم الصحفي هنا بما يقوم به رجل التحريات، يسير بخط متواز مع التحقيقات الأمنية دون تعطيل مسرى العدالة، يستخدم أسلوب الشرطة لا أدواتها، فهو لا يملك شرعية حمل السلاح والاعتقال والمحاكمة.

هذا الشكل هو الأبرز، لكنه ليس الوحيد، ونجده رائجًا في قضايا القتل، والعصابات، والاختلاس، والرشوة، والكوارث الجوية.

يعتمد فنيًا على استخدام الأدوات البوليسية، وملاحقة وتحليل الأدلة القضائية والقرائن الجنائية. تحقيقات الجرائم التي تبثها قناة ديسكفري ID نموذج مثالي لهذا الشكل.

2. تحقيق التجربة

حيث يتم اختبار الفرضيات من خلال التجربة الميدانية التي غالبًا ما يقوم بها الصحفي بنفسه، من خلال معايشته لبيئة الحدث وشخصياته.

في برنامج ناشيونال جيوغرافيك «مدينة الاحتيال»، يتخفى المقدم ويجرب من خلال التصوير السري ما يواجهه السياح من عمليات السرقة والنصب، في واحدة من أهم مدن السياحة العالمية، في كل حلقة.

الفيلم الوثائقي «سوبر سايز مي»، وتجربة المخرج مورغان سبورلوك في تناول وجبات مطاعم ماكدونالدز لمدة شهر كامل، وتحليل التأثيرات الصحية التي حدثت له بعد هذه التجربة، نموذج واضح على ذلك.

3. تحقيق الخلفية

يبحث فيما وراء الأخبار والقرارات واللوائح الحكومية أو الخاصة، ويدرس تأثيراتها على الجمهور، بالاعتماد على تفحص الوثائق، واستخدام المنهج الكمي للبيانات.

على سبيل المثال يتناول قرار حكومة ما بتعديل قانون ضريبة الدخل، ويبحث في أسباب ذلك، وتداعياته، ويدقق في أرقام السجلات العامة للضريبة، والموازنة السنوية للدولة، ويتفحص أي عمليات تهرب ضريبي، أو فساد مالي.

حصلت BBC على وثيقة سرية من 36 صفحة، كتبت باللاتينية عام 1962، وتقدّم توجيهات ملزمة من الكنيسة الكاثوليكية بالفاتيكان حول كيفية التعامل مع المخالفات الجنسية لرجال الدين كمحاولة للتملص من الإجراءات القضائية، مما جعلها تنتج عام 2006 حلقة ضمن برنامج «بانوراما»، بالاعتماد على هذه الوثيقة، بعنوان «الجنس والفاتيكان».

4. تحقيق الاستطلاع

يجمع آراء ومشاعر المواطنين، ويدرس الاتجاهات التفصيلية نحو حدث أو قضية، بناء على قياس موقف الجمهور، واستفتاءات الرأي العام.

فمثلاً يمكن أن ننتج فيلمًا عن خطر التجارب النووية، من خلال سؤال الناس عن بُعد المفاعل النووي عن مكان سكنهم، وهل من آثار صحية أو حالات وفاة بسبب ذلك؟

يجب الانتباه إلى علمية الدراسة، وتمثيل الشريحة المستقصاة الصادق للتركيبة السكانية بمختلف مكوناتها: الديمغرافية، والفكرية، والعرقية، والطائفية. ثم إخضاع معلومات العينة لعملية فحص وتحليل محايد.

5. التحقيق الوصفي

يصف حياة المشاهير، والرحلات المثيرة، والأحداث الغريبة. يبتعد عن السياسة والمواضيع الجادة بقدر ما يركز على الإمتاع.

لم يكتف مخرج فيلم «إكاروس» بقالب التحري وملاحقة الحكومة الروسية الداعمة لتعاطي المنشطات الرياضية الممنوعة، بل جرّب تعاطي المنشطات بنفسه، وتحت إشراف مدير بروتوكولات التحايل على تحاليل المشاركة في سباق الدراجات.

جدير بالذكر، أن أشكال التحقيق تتقاطع مع المذاهب الوثائقية ـ التفسير، والملاحظة، والتفاعل، والأداء ـ في التعبير الفني عن مضامين الفيلم الوثائقي التحقيقي.

كيف نحقّق مع الشخصيات؟

الشخصيات مصدر التحقيق الأقوى، وصوت الفيلم الداخلي. كلما أتقنّا اختيارهم أولاً، وإقناعهم بالحديث ثانيًا، ومحاورتهم ثالثًا، وصلنا إلى القواعد الذهبية التي ترفع قيمة المقابلة: شخصية مهمة، تخلق الصراع والتوتر، لديها ما تضيفه، نتيجة الحوار معها عظيمة.

التعمّق في علم النفس، ودراسة شخصية الضيف من أهم مواصفات الصحفي التحقيقي، فهي تمكّنه من استجواب الشخصيات، والوصول معهم إلى الدليل الذي يدعم وجهة نظر الفيلم، أو يناقضها. المخرج النرويجي بول ريفسدال في فيلمه «دوغما: الزر»، أدار الحوار مع 4 مقاتلين جاهزين لتفجير أنفسهم، في موت لا يفهمه، موقف لا يحسد عليه، وهو يقف وسط جبهة النصرة في سوريا.

في أولى حلقات برنامج «جرائم المحيطات»، يذكر المحقق البحري والمقدم كارستن فون هوسلين ما يلي: «لست شرطيًا، لا يمكنني اعتقال الناس وإجبارهم على الاعتراف.. يجب أن اعتمد على قوة الإقناع. العمل مع الشهود، تعلمت متى أندفع؟ ومتى أتراجع؟». وفي الحلقة الثانية حين وجد المقدم صورة فوتوغرافية لأحد المسلحين، بدأ بالحصول على معلومات إضافية عنه قبل أن يلتقيه، وذكر خطته لمواجهة الضيف: «يجب أن أفكر بالأمر مسبقًا، أريد جعل مشاعره تتقلب.. يجب أن يخشانا للحظة، وفجأة يجلس بالمقعد الساخن.. سأستخدم هذه الصورة وهو يحمل السلاح»، وخلال الحوار عرض عليه صورته متسائلاً: «إن لم تكن مطلق النار، فعليك أن تخبرنا ماذا حدث ذلك اليوم؟». وفي الحلقة الثالثة حين وجد شاهدًا واثقًا من نفسه، بحث في سر ذلك، وبدأ بالأسئلة التي تؤكد شخصية الشاهد، وعمله على السفينة ذاتها. وبهذا حصل على معلومات متطابقة من مصادر منفصلة، قابلها في أوقات ومناطق مختلفة.

فيما يلي بعض النصائح التي تمكّنك من إنجاح المقابلة:

- **حضّر للمقابلة.**

تعرّف على الشخص، اسأل عنه كما لو كنت ستزوجه ابنتك، اجمع كل شيء عنه، ادرس نقاط قوته وضعفه.

- **ضع خطة، اتبع الاستراتيجية المناسبة.**

هل ستبني علاقة ود مع الضيف؟

وبالتالي خلال تحضيرات المصور، تسخّن مع الضيف، تتحدث معه، وربما مع أطفاله، تريحه، تحافظ على منسوب هدوئه، ترفع ثقته بنفسه. تخيّل تورك حين تقف أمام الكاميرا، وتذكّر أن هؤلاء الناس ليسوا محترفين، لكنهم يملكون قصة الفيلم، وأثمن ما فيه.

أم ستترك مسافة بينك وبين الضيف؟

عندما قابلت الجزيرة أحد القادة الأمنيين في نظام بن علي خلال الثورة التونسية، قام الزملاء بتركيب المايكرفون له دون أي حديث معه، وقد خيّم الصمت، بينما تم تجهيز المقدم عبد الله الشامي بعيدًا عن الضيف.. فجأة دخل المقدم، وبدأ الحوار مباشرة من الأسئلة الصعبة.

نصيحتي؛ أغلب المقابلات في الأفلام التحقيقية بمثابة تحدي مكاسرة، لذا ابنِ جدارًا بينك وبين من تقابلهم، حتى من يظهر منهم بدور البريء.. ما زلتَ تنقب عن الحقيقة، لا تمنح أحدًا سر سفينتك، فيغرقك معه.

كل شخصية في الفيلم، محل شك وتحقيق مزدوج، وما يقوله الضيف يجب أن يخضع للأسئلة التالية: من أين عرف هذه المعلومات؟ هل يوجد

ثغرات في شهادته أو إجاباته؟ لماذا يقول ذلك؟ ما علاقته مع الشخصيات الأخرى؟

- **اقنع الناس بالتحدث.**

غالبًا لا يرغب الأشخاص العاديون بالذهاب إلى مركز الأمن، تمامًا، كما لا يحبون التطرق لمواضيع قد تجلب المتاعب. كيف يمكن أن نقنع موظفًا في منشأة حكومية بكشف المخالفات؟ تمهل في الإجابة عن هذا السؤال، لأنك ستحتاجها يومًا ما.

قد يؤدي استخدام المعلومات إلى الإضرار بالشخصية، انتبه، دع المصدر يرى كيف ستحميه. أرجوك لا تتّصل بموظف أثناء وجوده بالعمل، لتطلب الحديث عن فساد مديره.

- **حدّد مكان التصوير.**

موقع التصوير الذكي المرتبط بالموضوع وغايات مقابلة الضيف، يغني البعدَ الفني التحقيقي للصورة، ويشكّل إضافة تحريرية فكرية.

قد نختار المكان الذي يريح الضيف، ونصوّره في ملعبه وبين جمهوره. أو بما يضعف الشخصية ويثير المخاوف، كأن نجري المقابلة في موقع جريمة القتل. وقد نقرّر المكان أو الدولة التي توفّر الحماية، وشروط التواصل الآمن مع الشخصيات.

في الحلقة الثالثة من برنامج «جرائم المحيطات»، وفي الفلبين، أخذ المقدم أحد العاملين في السفينة المتهمة بالجريمة بعيدًا عن قريته. وفي الحلقة الخامسة في الصومال، وفّر المقدم بيتًا آمنًا لإجراء مقابلة مع قرصان صومالي طلب إخفاء هويته. وفي الحلقة السادسة في تايوان، قابل مصدرًا من جمعية صيد الأسماك، في سيارة أثناء توقفها في قبو موقف للسيارات.

- **تفنّن في إدارة الحوار.**

لا تعدم حيلة في إغواء الضيف لتقديم المعلومات. اعرف متى تكون حازمًا، ومتى تتلطف للالتفاف عليه، ولا تجعل المسؤول يفلت بأجوبة عامة.

مارس استراتيجية البريء والخبير؛ تبدأ بأسئلة بسيطة، تتدرّج في صيغة الأسئلة، ومدى حدّتها أو تأثيرها المزاجي، ومع الزمن تكشف علمك بهذه المعلومات، تطلب تأكيدات، ولا تشبع من المعلومات الإضافية.

أو، واجه المسؤول بالتهمة والتقصير دون مقدمات: «لماذا أطلقتم الرصاص على المتظاهرين؟». طبعًا سؤال كهذا يبنى على حوادث وبيّنات، لأنه محمّل بحكم مسبق.

وقد تمازح الضيف خلال الحوار، ثم تفاجئه بسؤالك المربك، وتنظر كيف يفعل، وبماذا يجيب. في فيلم «كتائب القسام» من برنامج الجزيرة «في ضيافة البندقية»، وأثناء مزاح وضحك القائد أحمد الجعبري، سألته: «ما هي أخبار إيران معكم؟».

قدّر السرعة المناسبة لطرح الأسئلة. سرّع من إيقاع طرح الأسئلة، اجعلها كالطلقات النارية، إذا أردت الحصول على حوار سريع، وإجابات تبرز حدة المتحدث.. أو تمهّل، حين ترغب في تهدئة المتحدث، ومنحه الفرصة لترتيب أفكاره، بهدف الحصول على إجابات طويلة، وربما عاطفية.

وقد تقرّر مع المسؤول الماكر أن تبقي التسجيل مستمرًا بعد إعلامه بانتهاء المقابلة. صدقني؛ قد يتنفس الصعداء، ويقدّم ما لا تتوقع من المعلومات، وربما يهدّدك بالقتل.

كن جاهزًا إذا ما قرّر الضيف الانسحاب من المقابلة أثناء التصوير، لا تظهر

مثل أسد يريد الانقضاض عليه، أقنعه، وأقنع الجمهور بأنك حاولت منحه الفرصة الكافية.

- **ركّز في خدمة الهدف.**

حدّد ماذا تريد من كل سؤال: المعلومة أم رواية القصة أم التفاعل أم التحليل؟ وهذا يعتمد على مغزى اختيارك للضيف منذ البداية.

حين يتلعثم سياسي مخضرم أمام سؤالك عن سر عدم مقاضاته لقاتل أبيه، فهذا التفاعل العفوي أعظم إجابة.

- **لا تستسلم، لاحق الضيف في كل مكان.**

أخبره بالمعلومات التي تخصّه، والأفضل أن يرد عليها. مثلاً؛ لديّ وثيقة تثبت أنك المالك الحقيقي للشركة التي ربحت المناقصة التجارية في وزارتك.. هل تحب أن تجيب؟

فيلم «فيروسات دبلوماسية» من إنتاج قناة الميادين، يرصد التعاون البيولوجي السري بين وزارة الصحة الجورجية والجيش الأمريكي. تقدم خلاله الصحفية البلغارية ديليانا غيتنييفا نموذجًا لمقابلات المواجهة مع الشخصيات التي ترفض اللقاء الاعتيادي. فقد أوقفت سيارة أمريكي أمام مختبر كيميائي عسكري في العاصمة تبليسي، وباشرت سؤاله عن عمله، ولماذا يقود سيارة دبلوماسية؟ وحين حاول التهرب أخبرته بمراقبتها لاصطفاف سيارته في موقف المختبر لأيام. ثم لاحقت نائب وزير الصحة الأمريكي في بروكسل، في مؤتمر للبرلمان الأوروبي عن الأسلحة البيولوجية، وسألته أمام الجميع عن سر تشغيل الولايات المتحدة 25 مختبرًا على حدود دول خصومها، وحين لم تحصل على الرد الكافي لاحقته في الممرات، وعند باب المصعد، وأكملت طرح الأسئلة الصعبة.

واجه الضيف، وحين يرفض الرد، فهذا أفضل رد.

• حمّل أسئلتك بالحقائق، اشحنها بالأدلة البصرية.

اقتبس من القوانين والسجلات والوثائق والإحصائيات، برهن معرفتك، ادعم أسئلتك بما لديك من قرائن ملموسة.

لا تقل لماذا تعتقلون المعارضين؟ إنما، قمتم بتاريخ ويوم وساعة ما باعتقال فلان في المكان الفلاني، وهو قيد الاعتقال الآن، لماذا؟ أو، هذه صورة من هاتف مواطن تظهر قوات الأمن وهي تعتقل المعارض، أين هو الآن؟ أو، اسأل أولاً عن اختفاء المعارض، وحين ينفي اعرض عليه الصورة، اسْترخِ، واسأل ما تشاء.

في فيلم «كردستان.. رهان الاستفتاء» من برنامج «ما خفي أعظم»، واجه الصحفي تامر المسحال المفكر الفرنسي برنارد ليفي عن دوره في استفتاء انفصال أكراد العراق. عرض عليه مادة فيديو تثبت ظهوره في أحد مراكز الاقتراع، وحين حاول الضيف التملص بأنه لم يكن وحده، سأله: «بأي صفة كنتَ تشارك على الأرض؟».

• كن محترفًا، واضحًا، موجزًا في عدد وطول الأسئلة.

لا تستخدم الأسئلة المركبة، التي تحتوي على أكثر من سؤال في المرة الواحدة، والتي قد تضيّع الشخص البسيط، وتمنح السياسي اللعوب الفرصة للإجابة على سؤال يختاره، أو التملّص من كل أسئلتك، وتمرير ما يريد.

ابتعد عن الأسئلة المغلقة التي تمنع استرسال الضيف. واعلم أن السؤال المتقن يستدرّ الإجابة الجيدة، يقود إلى سلسلة أسئلة.

لا تكن مثل آلة معبأة بالأسئلة، مع كل كبسة سؤال.
كن مثل لاعب كرة القدم المحترف، يركل كرته ويستلمها ويناور بذكاء.
وجّه سؤالك للضيف، حاول الحصول على إجابات كاملة، خذه من زاوية إلى

أخرى في نفس موضوع السؤال الأول، حتى تحقّق الهدف. ثم ضع الكرة من جديد في خط الوسط، واركلها مرة أخرى باتجاه الضيف.

- **ميّز بين السؤال الكامل والسؤال الناقص.**

قد تبدي في سؤالك الناقص شيئًا من التأكيد أو الإنكار أو الاستغراب، أو لا تكمله كي يكمله المتحدث بطريقته.

وليس شرطًا أن تستخدم أدوات الاستفهام بداية كل سؤال، صيغة وطريقة إلقاء السؤال تكفي.

- **استخدم اللكنة والمستوى اللغوي المناسب.**

لا تواجه بائع الفلافل بأسئلة مقتبسة من الأوديسا، ولا بلغة فصحى قلّما يتعامل بها.

لا تحاور سياسيًّا مخضرمًا بأسئلة بسيطة ولغة ركيكة، حينها تفقده عمقه، وتغرقه في ضحالة لغتك.

في المقابل، احذر أن يتصنع الضيف أمام جاذبية الكاميرا، أقنعه بأن طبيعته أفضل، اجعله يتصرف بشكل اعتيادي، لا تطلب من سائق تاكسي الحديث باللغة الفصحى، وإن تحدّث أوقفه، أُرْجُه أن يستخدم لكنته المعتادة.

- **استخدم الصمت، أعظم فنون الكلام.**

الصمت أبلغ الأسئلة، وأفضل أنواعها لإثارة الانفعالات. نصمت مع الشاهد المكلوم حتى ينفعل أكثر أمام الكاميرا. ونصمت مع السياسي لعله يتورط، يسترسل في الحديث، ويعطي معلومات لم يكن ينوي التصريح بها، أو لم يحضّر لها مسبقًا.

تم اغتيال القائد خالد الدحدوح بعد شهر من تصوير فيلم «سرايا القدس» ضمن برنامج «في ضيافة البندقية». حين تحدّثنا عن الموت، استخدمت الصمت لمراقبة ردود فعله. بدأ بذكر أسماء أصدقائه الشهداء، سألته: «ألست قلقًا أن يضاف اسمك بعد هذه الأسماء؟»، قال: «لست قلقًا، اسمي مدرج، أمر طبيعي متوقّع في كل لحظة»، سألت: «ممكن في هذه اللحظة؟»، قال: «ممكن ما أقمش من مكاني، مهيّئ نفسي ولا يهمّك»، يضحك، قلت: «نحن غير مهيئين أنفسنا». يضحك أكثر، صمت، ثم سألت: «فعلًا ممكن هذه اللحظة؟» قال: «نعم، كل شيء متوقع»، صمت طويل.

- **لا تتباهَ كأنك مكتشف الذرة، ولا تبدُ ساذجًا.**

توازن، وأرجوك لا تحمل أوراق الأسئلة، أو الحاسوب خلال المقابلة، وتملي الأسئلة كما لو كنت تهجّئها لأول مرة، حينها ستمنح بعض الضيوف فرصة الاستمتاع بالتهامك.

- **اعمل حساباتك، اختبر الوقائع، واصل جمع الأدلة.**

واسأل ضيفك في ختام المقابلة، هل لديه إضافة؟

اطلب منه أن يزودك بما يملكه من وثائق وصور وأرشيف، أو أي مواد مفيدة في بناء الفيلم.

ستذكر بعض الشخصيات أسماء آخرين أثّروا أو تأثّروا بالتحقيق، تأكّد من كيفية الوصول إليهم.

إننا نتعلم أكثر، خلال إجراء المقابلات، لذا اخرج من ذاتك لتكتشف الآخرين.

وصف المخرج إيرول موريس مقابلات فيلمه «إجراءات العمل الاعتيادية»، عن انتهاكات أفراد القوات الأمريكية ضد المعتقلين في سجن أبو غريب في

العراق؛ بأنها «من أصعب المقابلات التي أجريتها في حياتي، الكثيرون منهم في السجن، وعدد آخر قلق من خطر كشف شيء قد يقودهم للسجن».

سيطر على الحوار بذكاء، واستثمره بحكمة، فلا تفلت منك عجلة القيادة.. واصل طرح الأسئلة، نقّب عن الحقيقة، ابحث عن البراهين.

سيناريو التحقيق الوثائقي

هو الطريق الذي يقودك إليه حسّك الصحفي بالاعتماد على فرضية التحقيق، وما توافر لديك من معلومات ومواد، بعد إنجاز التصوير.

يتكوّن السيناريو من بناء يرتّب مسار الأحداث بما يخدم حركة الفيلم إلى الأمام، وسرد بما يتضمّنه من نص ومقابلات وحوارات.

وظيفة السيناريو هي تنظيم المعلومات، وتوصيل النتيجة النهائية بسلاسة، وجذب المشاهد وتشويقه لمتابعة الفيلم. وتأتي قيمته في تفعيل الصراع، وتكثيف أبعاده الدرامية، حيث الحياة تضجّ بالمفارقات، وحيث الوثائقي دراما الحياة الحقيقية.

في فيلم «تاريخ للبيع» من برنامج «سري للغاية»، يفتتح الصحفي يسري فودة السيناريو بقصة: «هذا الرجل موظف لدى وزارة الأوقاف المصرية، راتبه 50 دولارًا في الشهر، وظيفته حراسة مقبرة محمد علي الصغير، داخلها رفات عدد من حكام مصر، وجملة من أعز مقتنياتهم.. ذات يوم حين وقعت زوجته فريسة المرض، دعاه غريبان إلى زيارة أولاد الحلال، في أحد فنادق النجوم الخمسة». ثم ترك الضيف يتحدث عن الصفقة.

شكل السيناريو

هو المايسترو الذي يقود بقية أعضاء الفرقة الموسيقية، والوعاء الذي نضع فيه مكونات طبخ الفيلم، حسب تحديد دقيق للمقادير: كم نمرر الآن؟ وكم نؤجّل من المعلومات ومراحل حكاية القصة؟

1. التقليدي: بداية | وسط | نهاية.

أكثر أشكال السيناريو استخدامًا. يؤسّس للموضوع، ثم يستعرض القضية أو الصراع، ويقدم الحل في النهاية.

2. المقلوب: ينطلق من نهاية، نقطة تأزم يتقصى أحداثها.

برنامج الجزيرة «نهايات غامضة» يبدأ من حادثة الوفاة وما يكتنفها من غموض، ثم يعود لتناول الروايات المتناقضة، وما تحمله كل منها من أدلة وقرائن جنائية وقضائية.

فيلم «مخبر القاعدة» بدأ من الهجوم المسلح على السفارة الأمريكية في صنعاء عام 2008، على اعتباره الحدث الأهم.

3. الدائري: يبدأ من حدث مهم، ثم يعود إليه ويختم به.

كأن نعرض حادثة اعتقال صحفي دون محاكمة لفترة طويلة، ثم نناقش محاور أخرى، مثل: حرية الصحافة | حالات اعتقال الصحفيين عبر تاريخ الدولة | موقف المؤسسات الدولية.. ثم نعود لقصة الصحفي ذاته، وظروف اعتقاله، ومستقبل القضية.

4. الترتيب الزمني:

نستخدم التسلسل التاريخي والزمني لسرد أحداث الواقعة، سواء أكان تصاعديًا من الماضي إلى الحاضر، أو بالعكس والعودة للوراء.

أو نبني السيناريو بطريقة «فيلم اليوميات»، وحياة يوم أو فترة محددة لشخصية أو مدينة أو دولة. كما في الفيلم الروسي «تحت الشمس»، الذي يرصد سنة كاملة من حياة عائلة تستعدّ ابنتهم للالتحاق بوحدة الأطفال الحكومية في كوريا الشمالية.

أو دقائق الساعة الأخيرة قبل إعدام صدام حسين، أو فرار بن علي، أو تنحي مبارك. لاحظ البرنامج البريطاني الكندي «الساعة صفر»، الذي يعرض دقائق الساعة الأخيرة من الحدث.

5. التنقل المكاني:

حسب التنقل الجغرافي، أو بطريقة الرحلة، فيما يعرف بمصطلح «فيلم الطريق».

كما في برنامج «المسافة صفر»، وأفلام «بين المقاتلين في سوريا»، «حدكا.. عودة البندقية»، «الروهنغيا.. التنكيل والصمت»، حيث نرى المقدمة تسافر بين المناطق المختلفة، وتستخدم الخرائط لتوضيح موقعها، وخط سيرها.

كما يمكن بناء السيناريو في مكان مناسب للموضوع، ليصبح المكان بطل الفيلم. فيلم «مولينبيك في الزاوية»، رصد حياة المهاجرين المسلمين المتهمين بالإرهاب في حي مولنبيك، الكائن بأطراف العاصمة البلجيكية بروكسل، من خلال التصوير في صالون حلاقة: ما يحدث داخله من حوارات، وما يحدث وراء واجهته الزجاجية، خاصة مع إمكانية مشاهدة مسجد المتقين، الذي يقع قبالة صالون الحلاقة.

6. النماذج والأحداث المتوازية:

اختيار عينات للتعبير عن الكل، وترتيب السيناريو بالتناوب الفكري والفني بين قصص هذه النماذج ضمن خطوط متوازية.

فيلم BBC «أطفال إسبانيا المسروقين»، عن آلاف الأطفال الذين سُرقوا من أهاليهم خلال الحرب الأهلية الإسبانية، عرض قصة رئيسية بين أم إسبانية فقدت ابنها منذ أكثر من 40 سنة، وشاب عرف بأنه بيع للعائلة

التي تربى عندها في الولايات المتحدة، وربط بين الشخصيتين من خلال السرد المتوازي.

ربما تكون هذه الأشكال خاصة بالروائية، وصانع الأفلام الماهر من يستطيع أن يقدم سيناريو وثائقيًّا مستفيدًا منها، ومن الدمج بينها، بما يخدم مشروعه.

فيلم «حلايب.. المثلث الأصفر» من برنامج «المسافة صفر»، جمع بين شكلي التنقل الجغرافي، والترتيب التاريخي للأحداث.

بناء السيناريو التحقيقي

السيناريو الناجح، يجعلنا نهزم العبارة الدارجة عن الفيلم الجيد، بأنه يبدو كما لو لم يكن فيلمًا وثائقيًّا.

برنامج ناشيونال جيوغرافيك «ما قبل الكارثة» يبني سيناريو الحلقات بشكل موحد: النصف الأول من الحلقة يروي الحدث والقصة الرئيسية، خلال ذلك يعود إلى التاريخ بشكل مختصر لربط التحقيق بسياقه التاريخي. وفي النصف الثاني من الحلقة يناقش الأسباب ويحلل فرضيات وقوع الكارثة، ثم نهاية كل حلقة يقدم ملخصًا لما حدث حسب الترتيب الزمني، ويعرض نتيجة التحقيق، مع خاتمة بلمحة إنسانية لا تزيد عن دقيقة.

نصائح:

- فكّر بشارة البداية، ومشهد الافتتاح. تعامل معه كما لو كان سنارة، أرنا إبداعك يا صديقي؛ استعرض عضلاتك.

برنامج ناشيونال جيوغرافيك «تحقيقات الكوارث الجوية»، الشارة دائمًا ملخص للحدث، تجميع لمقولات قوية، توتير يجذبك للمشاهدة.

- ركّز على قوة البداية. يمكن أن تعرض قصة في قالب مشوق، أو حدثًا شكّل علامة فارقة، أو حكمًا قضائيًّا في قضية جدلية، أو دراسة تتضمن نتائج صادمة، خلال ذلك توضح للمشاهد ما الذي تبحث عنه، دعه يعيش معك الفيلم في دقائقه الأولى.

كما يستحب عرض منهجية البحث والتقصي، بحيث تضع المشاهد بصورة الخطوات والمهام التي قمت بها لإيصاله إلى خلاصة الفيلم.

طرح فيلم «حرب الديمغرافيا» الأسئلة التي يسعى للإجابة عليها: «هل يتعرض الشعب السوري لعملية تهجير ممنهجة؟ وهل باتت ديمغرافية سوريا المعروفة منذ مئات السنين مهددة بالتغيير؟ وما هي أبرز المناطق التي تغيرت تركيبتها السكانية؟». ثم أوضح طريقة العمل التي سوف ينتهجها من خلال تشكيل فريقين داخل سوريا وخارجها.

عرض البرنامج الهولندي «ZEMBLA» حلقتين بعنوان «أصدقاء ترمب الجدليون»، وأكّد بداية الحلقة الأولى على إنتاجها خلال حملة الانتخابات الرئاسية، وأنها تسعى للإجابة عن العلاقات المالية التي تجمع الرئيس ترمب مع رجال أعمال روس، بعضهم ينتمي إلى المافيا. أما الحلقة الثانية فتبحث علاقة ترمب مع الروسي اليهودي ليف أفيف، الملقب بملك الماس، والمعروف بدعمه للمستوطنين في إسرائيل، ومخالفات حقوق العمال في القارة الأفريقية.

- احذر من إعلان نتيجة التحقيق في البداية، لديك كامل مدة الفيلم لتعرض كل شيء، وتقنع الجمهور بما ستصل إليه. إذا كنت ستبدأ فيلمك بإلقاء التهم، وحسم النتيجة، فلماذا أكمل مشاهدته؟

- اخدم النهاية، اجعلها تسكن المشاهد إلى الأبد. لخّص النتيجة بناء على معطيات ودلائل.

اذكر ما توصلت إليه سواء عن طريق الضيوف، أو بصياغة النص، بعيدًا عن الثرثرة الذاتية.

ختم فيلم «حدكا.. عودة البندقية» بمرافقة المقاتلين الأكراد في أقرب نقطة من الحدود الإيرانية، وبسبب خطورة الموقع، ركض الفريق مبتعدًا، خشية استهدافهم من نيران الحرس الثوري الإيراني.

أما فيلم «تجار الحرب» فختم بمشهد بيع اللاجئ اليمني لكليته، بعدما تابع خلال السيناريو ظروف حياته في مصر، وانتظاره إجراء العملية، وقبض الثمن.

احذر من السطور الأخيرة، قل ما يكفي مما وصلت إليه، ولا تتطوع بمعلومات لم تبحث عنها، أو تكتب نصًا من قبيل الأماني التي لا تدعمها حقائق الفيلم.

حينها قد تشير إلى تساؤلات إضافية قاد إليها التحقيق، وما زالت بحاجة إلى استكمال بحث من الجهات المعنية.

- تحدّث عن اللحظة الراهنة، اربطها بتطوراتها عبر الرجوع المقتضب إلى الماضي، والعودة إلى بداياتها التاريخية. حاول أن تتوقّع حلاً مستقبليًّا، وقد تقارن كيف حلّت مشاكل شبيهة.

- نظّم المشاهد والأحداث، حدّد نقاط التحول في الفيلم، احبك ذرواتك بمهارة، من خلال تقديم وتأخير وتجزيء المعلومات. فكّر بالمكان الأنسب لعرض المواد الحصرية في سيناريو التحقيق.

في فيلم BBC «الساحر الذي سرق البنك»، ومدته 53 دقيقة، ويحكي

قصة احتيال رجل من مالي على بنك دبي الإسلامي، تم التعريف بالشخص عند الدقيقة 11، وفي الدقيقة 41 بدأت الصحفية رحلة البحث عنه، ثم عند الدقيقة 45 نراه في بيته، ويبدأ الحوار الشيق معه.

في الحلقة الخامسة من برنامج «جرائم المحيطات»، وخلال مشهد السفر وسط منطقة خطيرة في الصومال، ذكر المقدم معلومة انفجار عبوة ناسفة بالقرب من طريقهم، وعليهم التوقف الآن. خلال مدة 4 دقائق القادمة من السيناريو، عرض الفيلم لقطات أرشيفية، وتحدّث عن تاريخ الحرب الأهلية الصومالية، وبدايات ظهور القرصنة البحرية، ثم عاد إلى مشهد السيارة والمقدم يخبرنا: «بعد انتظار دام 4 ساعات، يصلنا خبر زوال العبوة الناسفة، يمكنني الآن شقّ طريقي إلى بوصاصو، وأقابل القرصان».

وفي فيلم «سرايا القدس» من برنامج الجزيرة «في ضيافة البندقية»، نشاهد بطل الفيلم خالد الدحدوح في مواقع مختلفة خلال السيناريو، حتى نفاجأ في النهاية باغتياله.

- تتبّع المواقع والشخصيات والتواريخ، لا تقفز كثيرًا بين الحاضر والماضي والمستقبل، والمشاهد النهارية والليلية، هذا يشعر المشاهد بالدوار.

- قلّل الازدحام.. لا تعرض نمطًا فنيًا ثابتًا لفترة طويلة خلال السيناريو، لا طوفان مقابلات، ولا سيل وثائق لا ينقطع.

- غيّر المشهد عند كل حقيقة جديدة أو غريبة.. اجعل المشاهد يميّز معك ذلك، ويفهم أن هذا مصدر أو زمان أو مكان جديد للفيلم.. اجعل من كل مشهد أو محور فكري عربة تكمل قطار الفيلم.

- أرحني عند كل منعطف، متّعني خلال الطريق الذي ستأخذني فيه. حين ترد معلومة مهمة أو صادمة توقّف، تأكّد أنني استوعبتها معك.

أعطني الفرصة كي أمضغ اللقمة، أبلعها، أهضمها.

- لا تدفن فيلمك تحت كمّ المعلومات المهولة.. طوّر مهاراتك في تحويل معلومات التقصي وبيانات البحث إلى قصة. احْكها بفن. الجمهور يا عزيزي يحبّ القصص.

- أفضل ما تفعله الأفلام الوثائقية حين تمارس التحقيق، أنها تقرّب المعلومات من المشاهد العادي، تبسّط المصطلحات العلمية المتخصصة، تشرح كل شيء بتقنيات ملفتة.

- تشكّل المقابلات جزءً مهمًّا من السيناريو، وليس كامل السيناريو. احرص على تقديمها ضمن مزيج سيناريو الفيلم المترابط، والمتضمن البناء والمشاهد البصرية والتعليق.

حين تتحدث الشخصيات، لا تكرّر بالنص ما يقولون، استند إلى إفاداتهم، وتحقّق منها.

عرض برنامج «فرونت لاين» في فيلمه «التاريخ السري لتنظيم الدولة»، مقابلة مع وزير الخارجية الأمريكي الأسبق كولن باول، ذكر فيها أن اسم أبو مصعب الزرقاوي ورد في إشارة عارضة، خلال خطابه في الأمم المتحدة عام 2003 حول ضرورة إعلان الحرب على العراق، ليمرّر السيناريو مباشرة تحليله للخطاب، مؤكدًا أن 7 دقائق خصّصت للزرقاوي، وقد ذكره باول 21 مرة.

- عرّفني بالشخصيات التي تظهر، وعلاقتها بالموضوع، واذكر أي معلومات إضافية حول طريقة أو صعوبة الوصول إليهم، وما إذا كانوا يظهرون لأول مرة على الشاشة، أو يقدمون معلومات جديرة وسباقة. اصنع أبطالك ممن تعتقد أنهم يملكون الحقيقة المؤثرة، اخدمهم أكثر.

- استعرض المخاطر والصعوبات التي واجهت فريق العمل، دون مبالغة وتهويل.

- راجع السيناريو باستمرار، ارتق به من درجة إلى أعلى، فالسيناريو يتقدم من خلال عملية إعادة الكتابة.

- مارس الرقابة الذاتية. دقّق المعلومات، هذه خطوة لازمة لإصلاح ما قد يكون فُقد، أو هرب سهوًا، أو لمزيد من التركيز في جانب معين.

- ضع سطرًا تحت اسم كل متهم، أو نقد لجهة أيًّا كانت، وتأكد أنه تم إخبارهم، ومنحهم الفترة الكافية للرد، وثّق جهدك في الحصول على الرد.

  لا تخبرهم في حالة واحدة، إن ظننت أنهم قاتلوك.

- استعن بجهة مختصة لتدقيق الفيلم تحريريًّا وقانونيًّا، قلّص المخاطر قدر الإمكان: ما هو اتهامات مرسلة بلا أي دليل غير مفيدة، كل ما يسبب إشكالية وهو غير مهم في التحقيق لماذا تبقيه؟ جرّب دور محامي الشيطان، قم بالتشكيك في روايتك.

- تأكّد من حقوق النشر، فما قيمة أن تصنع فيلمًا يكشف عملية سرقة، وقد اعتديت على لقطات لا تملك حقوقها؟

أصول الكتابة التحقيقية

الأولوية في صناعة الأفلام للإخبار عن طريق الصورة، وهذا لا ينفي دور النص، إذا ما كتب للصورة، تكامل معها، ولم يعارضها.

النص أو التعليق، صوت يروي الفيلم بهدف الإضافة على الصورة، وليس وصف ما نراه فيها. ويفضل ألا يستغرق وقت التعليق أكثر من ثلث مدة الفيلم الفعلية، ويحتوي على مساحات لإراحة المشاهد، وتضمينها بالموسيقى والمؤثرات.

في النص نطرح التساؤلات، نكشف الحقائق، نخبر التفاصيل، نوضّح آليات العمل الاستقصائي، نسرد القصص، نربط بين الأحداث، كما نضبط إيقاع الفيلم. سنحصل مثلاً على إيقاع متسارع كلما زاد عدد الجمل، وقلّ عدد الكلمات فيها، يصلح هذا لأفلام التحقيق الحربي، أو في تحقيق رياضي، وبما يناسب جمهوره المستهدف.

متى نكتبه؟ بعد إنجاز التصوير، حيث يتطوّر النص كما يتطوّر إعداد السيناريو، ويستمر تحرير النص وتعديله قبل وأثناء المونتاج.

متى نسجّله بشكل احترافي؟ في المرحلة النهائية للمونتاج.

الكتابة للصورة

تحمل الصورة دلالة خبرية تصف ما فيها من بيئة وعناصر وعلاقات، ودلالة رمزية تستنبط الأفكار والمعاني، وتمكّن النص من الإجابة على سؤال: لماذا نرى هذه الصورة؟

أمام لقطة أطفال يلعبون كرة القدم في إقليم دارفور السوداني، يمكن الحديث عن براءة الأطفال التي تخفي واقعهم المعيشي الصعب، أو مقارنة الكرة بالمعارضين الذين تتقاذفهم الأهواء والمصالح الفردية، أو تشبيه صراع أقدام الأطفال بفوضى النزاع القبلي المسلح، أو تشبيه تضييع إحراز الهدف بما تعانيه المنطقة من سوء تخطيط، أو تشبيه إثارة الغبار والتراب بالمشاكل التي يستنشقها السودان.

وسواء استخدمت اللغة الصحفية التي تعرض وجهات النظر المختلفة، لا تتدخّل بين الفيلم والمشاهد، ولا تقدّم الأحكام نيابة عن الضيوف، أو اللغة الأدبية ومحسّناتها البلاغية وتراكيبها الجمالية والشعرية، أو جمعت بينهما بخلطتك ونكهتك الخاصة، فإن القرار الأهم: هل تريد أن توجه الجمهور للنظر إلى التحقيق دون الالتفات إليك، كما يفعل برنامج «فرونت لاين»، أم تريد أن تزيّن النص وتتلاعب بالصياغات والمعاني، وكأنك تقول: «انظروا هنا، أنا خلف الستارة»؟

لا شك أن الصحفي يسري فودة يمثل تفردًا في الكتابة التحقيقية، ونصيحتي؛ لا تغلّب الأسلوب على المعنى.

تحرير النص

عملية تحرير النص تعني إزالة الدهن ليبدو أكثر رشاقة، نحْته لتحسينه، صقل التعابير والجمل والكلمات، ليصبح أفضل مما كان.

وحسب الدكتور مارك لي هنتر، فإن النص المتقن متماسك منسجم التفاصيل، يجيب عن جميع التساؤلات والتناقضات، يتحرك للأمام، ضمن سرعة محددة، ومقصودة.

يُكتب التعليق ليُسمع لا ليُقرأ، لذا يجب قياس وقعه على الأذن، ويهمّنا أن يقرّب ولا يُغرّب، ضمن «لغة الصحافة» التي تقدّم العربية الفصحى السليمة دون تعقيد، واضحة، بسيطة، دقيقة، مضغوطة، لا حشو فيها، ولا تكرار.. تتجنّب الصفات واستخدام صيغة الحال، فالصورة بالغة الوصف، كما تتجنّب اسم التفضيل والأسماء المشتقة من وزن أفعل، فلا تهول ولا تبالغ. تقرّب الأرقام، فتقول النصف بدلاً من ذكر نسبة 54%، كما تحاول أن تفهمها للمشاهد أكثر، فقيمة 10 ملايين دولار المنهوبة من وزارة الإعلام، كان يمكن أن تؤسس قناة تلفزيونية، أو عددًا من المؤسسات الإعلامية اللازمة لخطاب الدولة. تتجنّب الظروف والإشارات الزمنية المتحركة؛ كيوم أمس أو العام القادم. تتجنّب الجمل الاعتراضية.. تتفادى صيغة المبني للمجهول.. تتحدث بلسان الفريق والمهام الجماعية.. تُفضّل الفعل المضارع للدلالة على الحاضر والاستمرارية.

كل جملة لها بداية ونهاية، لذا تتلافى أسماء الوصل، مثل: الذي، التي، الذين.. ولا تستخدم أحرف الإضافة وأدوات الربط، فتبتعد عن العطف والوصل والاستدراك والاستثناء والتعليل، وهذا يشمل: واو العطف، الفاء، ثم، مثل، كما، أيضًا، كذلك، بالإضافة، ولكن، إلا أنه، بناء على، لكي..

ومن أجل نص أكثر قربًا من الجمهور، يمكن الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والأدب، والحكمة، والأمثال الشعبية.

مع نصيحة تلافي الجمل المستهلكة، لاحظ كيف أصبحت عبارة «التفكير خارج الصندوق» قرين التقليد المبتذل.

تذكّر دائمًا: «إن لم تفهم جدتك النص، فقد فشلتَ».

بعد الانتهاء من كتابة النص، عد إليه مرة أخرى، اختصره، راجعه، اختصره مرة أخرى، أعلم أنك ستهيم بما تكتب، لكنك تحتاج إلى قسوة الإيجاز والحذف، بما يسمى بمنهجية «اقتل أحباءك».

اطبعه بطريقة تصلح للتسجيل، دقّقه لغويًّا وشكّله بالحركات، تأكّد من علامات الترقيم ونقاط التقطيع بين الجمل، دعها ترشد المعلق، وتضبط إيقاع القراءة.

فكّر مطولاً في الصوت المناسب لتسجيل التعليق، دع طبيعة الموضوع تقرّر. ابحث عن خامة صوت مناسبة، وأداء حيوي غير متكلف، قادر على تحويل النص المكتوب إلى نوتة موسيقية.

التنفيذ الفني للفيلم

تكمن قيمة الوسيط الفيلمي في تحويل القضايا إلى فن، ومعالجة الأفكار التحقيقية بتقنيات بصرية سمعية، مقنعة مبدعة ممتعة. ولكن دون مبالغة في الجماليات، ولا تفضيل للزخارف على حساب المضمون، فالمواضيع الاستقصائية لا تقبل مساحيق التجميل.

في التصوير، ننفّذ عمليًّا ما خطّطنا له، وعيوننا وعقولنا منفتحة على استقبال المزيد من الإبهار الموضوعي والمرئي، ما كان كلمات وجملاً مكتوبة يتحوّل إلى صور بليغة.

من المفارقات المعيبة أن تشاهد فيلمًا عن الجريمة المنظمة، مليئًا باللقطات المقربة على أطفال. وفيلمًا يتناول تجارة الجنس، تركز لقطاته على عائلات، وسيدات يجلسن في الحدائق.

وظيفة التصوير إيجاد ودعم الدليل البصري. حين قابل فيلم «حرب الديمغرافيا» أسيرًا عراقيًا قاتل إلى جانب النظام السوري عام 2016، وبعد التأكد أن المقابلة تمت دون ضغوط، التقطت الكاميرا وشمًا وكتابةً على جسمه، توضّح انتماءه وميوله السياسية.

إذا ما قابلت شخصًا يدّعي تعرضه للتعذيب، فإن مهمة التصوير تبرز في إثبات روايته، وتقديم صورة تخدم القانون؛ من خلال توضيح وتوثيق آثار التعذيب على جسده، أو الذهاب معه إلى مستشفى ليجري فحصًا كاملاً أمام الكاميرا، وبهذا نصور الفحص، وما يتبعه من وثيقة النتيجة الطبية.

وإذا كان التصوير عملية ممتعة تجري في الأماكن المفتوحة المتنوعة من أجل تقديم خيارات صورية، فإن المونتاج هو المكان الضيّق الذي يتطلّب تحديد الخيار بدقة، وفيه نجمع اللقطات مع بعضها، نبني منها معانيَ عبقرية، ننسج تشويقًا. هنا تظهر ملامح الجنين، وتنمو نُسخ الفيلم تدريجيًّا.

الإتقان الفني ينجو بالفيلم من الغرق في الخطابية والتعقيد.

فيما يلي مجموعة من النصائح لتنفيذ تصوير ومونتاج يوافقان خصوصية الوثائقي الاستقصائي، ويحقّقان طموحاته.

التصوير:

- التصوير السري هو بديل اللقطات التي لا يمكن تنفيذها بالتصوير العادي، لا تستخدمه لإثارة مجانية.

- تعبّر اللقطة عن كادر أو حيز مكاني في زمن معين، عناصر متحركة و/أو ثابتة يتم تأطيرها ضمن تكوين ينمّ عن معان وعلاقات مختلفة. دع الصورة تتكلم، وعندما تبدأ بتأسيس اللقطات فكّر بالحيز، والزمن، والعناصر، والتكوين، والعلاقات.

- انزل إلى الميدان، احرص على تصوير ما بعد الحدث في الموقع ذاته، هذا يوضح ما حدث أصلاً. لا تحدّثنا عن مواقع أو شواهد أسهل ما يمكن فعله أن ترينا إياها، شرط عدم التلاعب بمحتويات وعناصر المكان.

- عزّز الصبغة التحقيقية من خلال استخدام تقنيات تضفي الغموض، مثل: التلاعب بوضوح عدسة التصوير | التصوير بالكاميرا المحمولة مع قليل من الاهتزازات | التصوير من خلف الجدران والأبواب والنوافذ بما يدعم المراقبة | إخفاء بعض تفاصيل العناصر.. ورجائي؛ لا تبالغ.

- اصنع هوية فنية موحدة للفيلم، أو لجميع حلقات البرنامج.

برنامج ناشيونال جيوغرافيك «ملفات محيرة» يعتمد طريقة موحدة للتعريف بالشخصيات وعرضها بداية ضمن لقطات صامتة للوجوه، تحدّق بالكاميرا من زوايا مختلفة.

برنامج الدوكيودراما «الساعة صفر» يستخدم الشاشات المنقسمة لعرض مزيد من التفاصيل، بينما يستفيد برنامج «المسافة صفر» من الدرون واللقطات الجوية.

- الأولوية لتوضيح «أدلة الربط» التي توضح من فعل ذلك.. ركّز على الرموز والإشارات التي تدل على الجهة المتهمة، إذا كان شرطيًا فما هي رتبته، رقم سيارته، أو اسم المنطقة، أو مركز الأمن الذي دخل إليه..؟

- سجّل لقطة واحدة متواصلة للأحداث الفاصلة، حاول ألا توقف الكاميرا أبدًا، بما يدعم قوة ومصداقية المادة.

- احرص على تنويع كوادر اللقطات، وأحجامها، لتوضيح الفعل، البيئة، الكيفية، الأشخاص المتدخلين بالقصة.

- صوّر المقدم حين يكون ذلك ضروريًّا، أظهره كجزء أصيل يخدم القصة والشخصيات الحقيقية، ولا يسرق الأضواء.

- دعك من التقليد والقوالب المهترئة، اخرج من لقطات الغرفة المعتمة، وقصاصات الورق، وتعليق الصور على حبل الغسيل.. ما عَقمَ الإبداعُ يا صديقي.

- ابتكر في كوادر المقابلات، اصنعها على عين، وتأكد من جودة الصوت، ومن تركيز نظر الضيف باتجاه محدد.

- حين تقابل مصدرًا سريًّا، دع التصوير يخفي هويته، استخدم كوادر وزوايا ذكية. ليس مناسبًا أن تصور مع مصابين بمرض الإيدز باستخدام لقطات مقرّبة على الوجه، وأنت تعلم ضرورة إخفاء هويتهم، وبالتالي ستضطر عند المونتاج إلى تمويه وجوههم، بما يعني أن المشاهد لن يرى شيئًا مفيدًا في كادر التصوير.

- حدّد مدة التصوير، قدّر لكل مشهد ومقابلة الوقت اللازم للخروج بنتائج جيدة، لا تبذر، ولا تنافس الجاحظ في بخله، دع أهمية الموضوع تحكم ذلك.

- حافظ على تسجيل البصمة الرقمية، أو البيانات الوصفية للمادة المسجلة في الكاميرا: التاريخ | الساعة | تحديد الموقع (GPS). وعلى الأقل سجّل ذلك بصوتك، أو اعرض ما يفيد ذلك مما حولك من صحف، أو ساعات، أو لافتات طرق.

- اشتغل على الإضاءة، دعها تصنع أفكارًا تخدم التحقيق، قرّر كيف تستفيد من العتمة، ومن تركيز الإضاءة في بقعة محدّدة، استفد من التأثيرات السيكولوجية للألوان الباردة.

- بدّل بطاقة التصوير والتخزين عندما تنجز أمرًا هامًّا وسريًّا، احفظها في مكان آمن، وفّر نسخًا منها، وامنع النسخ المكرر أو التسجيل الجديد على البطاقة.

حين يطلب الأمن في الموقع الحساس مشاهدة تصويرك، ستريهم محتويات بطاقة أخرى.

المونتاج:

- المونتاج خلّاق للإيقاع، متحكّم بالمشاعر. حافظ على حركة الفيلم، وقدّر السرعة المناسبة لكل مقطع. اركض بالمشاهد في لحظات المواجهة، ومدّ من وقت اللقطات، وخفّف الانتقال بينها، إذا أردت شعور الخوف والتردد.

- حدّد محتوى اللقطة التي ستمرّرها بالفيلم، ماذا تأخذ من عناصر اللقطة؟ وماذا تترك؟ لقطة شارع نظيف، ليس كما لو اكتفى المخرج بجزء بسيط من اللقطة؛ يمر خلاله جرذ.

- سلّم زمام القيادة للصورة، ركّب اللقطات واجمع المشاهد بشكل صحيح، ثم أسقط عليها النص، اجتهد في ذلك، رغم أنه أكثر صعوبة، إلا أنه فعل المحترفين.

- انتقل من اللقطة عندما تتيقّن من وصول معلوماتها، حكّم إحساسك بالمدة الكافية لاستيعاب المشاهد.

  واعلم أن زمن اللقطة على الشاشة يؤثر في مغزاها.

- اعتمد القطع خلال التنقل بين اللقطات، لأنه حقيقي مثل العين المجردة، واستخدم المزج لاعتبارات ملفتة.

  في فيلم عن السحر، قد يصبح المزج ضرورة لتكثيف فوضى الغموض.

- رتّب اللقطات بما يوجه عملية التفكير عند المشاهد، ضمن مصطلح المدرسة الروسية «المونتاج الفكري»، حيث كل صورة تستمد دلالة خاصة من مجاورتها لما قبلها وما بعدها.

برأيك أيهما أصح وأقوى: أن تمرر في البداية لقطة جندي إسرائيلي يطلق النار، أم لقطة طفل فلسطيني يلقي الحجارة؟ أيهما يسبّب الآخر؟

- اترك لخبرة الإنسان أن تُكمل الصورة الناقصة. استفد من هذا في عدم تمرير لقطات الجريمة البشعة. انفعالات وجه المرأة تعفينا من تمرير لقطة مقربة للجثة المحترقة.

- استخدم المونتاج المتوازي للمقارنة، والمقاربة، والمفارقة، بين الأحداث. جمهور يصرخ في ملعب كرة قدم، بينما جمهور آخر يتظاهر في الميدان. أو نساء يقفن على باب زيارة السجن، بينما أزواجهن يعذبون في الداخل.

- الموسيقى إضافة مرهفة، اختر المقطوعات المناسبة لخصوصية التحقيق، وركّبها في المكان والموقع الأفضل. دعها تأخذني حيث تريد، تعيّشني الحالة.

- التلوين الاحترافي يوحد المزاج، ويخدم الأجواء التحقيقية.

- أعط المونتاج حقّه، تمهّل في حسم القرارات. الأهم من التقدم بسرعة أن تسير في الاتجاه الصحيح، ويومًا بعد يوم، سترفع وتيرة العمل وكمّ الإنجاز.

نؤكّد أن العمل التحقيقي تتداخل فيه المراحل وخطواتها التنفيذية، فالتصوير قد يبقى مستمرًّا حتى لحظات المونتاج الأخيرة، وعملية البناء الابتدائي للمونتاج قد تبدأ مبكرًا، وتتغيّر بناء على ما نحصل عليه تباعًا من وثائق ومواد. العمليات الفنية مستمرة، كما أن التحقيق لا يتوقف عند حد.

نشر التحقيق

حين تصل إلى هنا، هذا يعني تجاوزك للصعب، حصولك على المميز، وعليك الآن إكمال المهمة بوضع خطة نشر التحقيق.

تواصل مع مختلف الجهات، مؤسسات المجتمع المدني، المنظمات غير الحكومية، شبّك علاقاتك قبل النشر، دعهم يؤازروك.

قيّم المخاطر، جهّز نفسك لأسوأ الاحتمالات.

اعرف كيف تدافع عن عملك أمام المختصين، وقبلهم أمام الرأي العام، ولتكن قاعة المحكمة فرصة إضافية لعرض المزيد من المعلومات والوثائق التي تثبت فرضيتك.

صديقي؛ لا تفاخر.

ولا تعتقد أن هذا العمل يمنحك الحصانة طول العمر، خطأ واحد يكلفك الخروج من دائرة الاستقصاء، التي هي صحافة المسؤولية.

المسموح والممنوع

الوثائقي التحقيقي عهد مع الجمهور، والتزام بأن ما يعرضه موثَّق، لذا حين يكذب، ويوهم المشاهد بالحقيقة، فإن خطيئته كبيرة.

تطالع عناوين بعض المواضيع فتشعر أن الحرب على الأبواب، بينما القصة حادثة إطلاق نار فردية، هذا التضخيم يعاكس أبجدية الصحافة الاستقصائية، ويناقض قيمة الدقة، ومبدأ العدالة.

نعم، يلجأ التحقيق إلى استخدام أدوات تخالف الضوابط الإعلامية المتعارف عليها، لكنها تصبح مبررة، بل ومطلوبة، إذا كانت تخدم المصلحة العامة. ويبقى الفيصل هو عقلية الصحفي في اختبار البراهين، وعلمه بالقوانين والتشريعات المحلية والدولية، وتشرّبه بأخلاقيات المهنة التي قد يتجاوزها أحيانًا، لكن بوعي بالتبعات، وثقة بالنتائج.

في سلسلة أفلام «اللوبي الإسرائيلي في بريطانيا»، كشفت شبكة الجزيرة نشاطات إسرائيل السرية في لندن باستخدام صحفي متخف لفترة طويلة، انتحل صفة ناشط حزبي عمّالي متعاطف مع إسرائيل، وصنع هوية جديدة لنفسه من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، مما جعله مصدر ثقة أحد موظفي سفارة إسرائيل في لندن، ومكّنه من الاقتراب من مجموعة أصدقاء إسرائيل في حزب العمال، وبالتالي توثيق محاولات تأثيرهم في الحكومة والأحزاب البريطانية.

بعد بث الفيلم، اعتذر السفير الإسرائيلي من وزير الخارجية البريطاني رسميًّا، وطرد موظف السفارة الإسرائيلية، فضلاً عن فتح لندن تحقيقًا حول النفوذ الأجنبي على سياسييها.

في المقابل، اتهمت جهات موالية لإسرائيل شبكة الجزيرة بمعاداة السامية، وانتهاك الخصوصية، والانحياز، وعدم الإنصاف. وتقدّمت بالشكاوى إلى هيئة مراقبة البث البريطانية (أوفكوم)، التي بدورها برأت الجزيرة، مؤكدة مهنية البرنامج، واحترامه لأبجديات العمل الصحفي.

فيما يلي قواعد عامة تخصّ أدوات ومهام العمل الاستقصائي، مع التأكيد أن القانون يدرس كل حالة بشكل مستقل، وحسب دول التصوير والإنتاج والبث، وجنسية الموضوع والضيوف.

والمؤسسات العريقة تعيّن مستشارًا ضليعًا في الشؤون التحريرية والقانونية الخاصة بكل منتَج تحقيقي.

التصوير السري

يعتبر انتهاكًا لحقوق الأفراد الشخصية وخصوصية المواقع، إلا إذا لم يوجد بديل عنه لتوثيق المخالفة، وحينها يفضّل أن يذكر الفيلم مسوغات اللجوء إلى التصوير السري.

تطلب قناة الجزيرة من المنتجين التأني قبل الذهاب إلى هذا الخيار، وتضييق مساحة استخدامه، ودراسة أهميته وضمان المعلومات التي سيضيفها عن التصوير العادي، مع تحديد الإجراءات المتبعة لأمن وسلامة فريق التصوير.

فيلم الجزيرة «العبودية الحديثة في بريطانيا»، أظهر من خلال التصوير السري المخالفات الجسيمة التي يتعرض لها العمال في إحدى مغاسل السيارات جنوب شرقي إنجلترا.

وقد كشف برنامج BBC «بانوراما» عن انتشار المخدرات في السجن البريطاني نورث هامبرلاند، بعد 60 يومًا من التصوير السري.

التسجيلات الصوتية

ضمن قاعدة تحقيق المنفعة، وعند انعدام البدائل التي تقدم أدلة التحقيق، يمكنك تسجيل المكالمات الهاتفية إذا ما كنت طرفًا فيها، وخاصة في مواجهة الشخصيات التي ترفض التصوير، أو تلجأ لأماكن غير معلومة، يصعب الوصول إليها إلا عبر الهاتف. وكذلك الحال بالنسبة لتسجيل اللقاءات الشخصية، على وسيط صوتي.

في فيلم «أثير الكراهية» سافر مقدم BBC نور الدين زروقي إلى الكويت لإجراء مقابلة مع السيد خالد العصيمي، وحقيقة تمويله لقناة تلفزيونية متهمة بالخطاب الطائفي، تواصل معه هاتفيًا بعدما استنفد كل محاولات الوصول والتصوير معه.

الاتصال المسجّل دون علم الطرف الثاني، لا يعفيك من التعريف بنفسك بداية الاتصال، والتصريح بالمؤسسة التي تعمل لها.

انتحال الصفات

الانتحال وسيلة لا غاية. في أضيق الحدود، وحين تعدم الحيلة، يسمح بتقمص الأدوار والمسميات الوظيفية لاكتشاف ما يحدث بشكل مباشر، شرط ألا يكون بأسماء أشخاص بعينهم.

يجوز دخول بيت أحد المتهمين بالفساد بصفة بائع زهور، ولكن لا تقدم نفسك باسم بائع حقيقي. لك أن تفحص سلامة الإجراءات الطبية من خلال تقمص دور مريض، لا دور طبيب. كما يحظر انتحال شخصية رجل أمن، فهذا تزوير يحاسب عليه القانون.

يمكن التخفي في شخصية عامل لكشف الفساد، لا كسارق يسرق. احذر أن ترتكب مخالفة، من أجل كشف مخالفة قد لا تكون صحيحة.

«الصحفي الخفي»؛ الألماني المخضرم غونتر فالراف، هو أشهر من قام بالنشاطات الصحفية السرية: عامل في مخبز | ساعي بريد | أفريقي يبحث عن عمل | مهاجر تركي | فأر اختبار لمصانع دواء. وقد جرّته أعماله إلى المحاكم، لكنه كان يخرج منها مرفوع الرأس.

الإجراءات الموازية للجهات الأمنية

قد يقتحم الصحفي الاستقصائي عشّ الدبابير، ويمارس بعض الأعمال والاتصالات غير القانونية، دون أن يقوم بجرم عملي، ولا يعرقل مسار العدالة، وإجراءات المؤسسات الأمنية والاستخباراتية، مع ضرورة وضعها في صورة ما يقوم به.

تواصل أحد صحفيي BBC مع تنظيم الدولة عبر موقع تويتر، لإنتاج تحقيق خاص. وحينها حاول التنظيم استمالته لتنفيذ هجوم بلندن، بينما كان الأمن البريطاني على علم بهذه الاتصالات.

تم الكشف عن جريمة الاتجار بالأطفال في فيلم الجزيرة القصير «يحدث في العراق»، من خلال القيام بعملية شراء طفلة في بغداد بمبلغ 4 آلاف دولار. لا شك أن هذه مهمة خطيرة، وتنطوي على مخالفة قانونية، أكّد فريق الإنتاج على وعيه بذلك، وجاء في نص الفيلم: «في ظل معرفتنا بجرم شراء طفل، وضعنا الأجهزة الأمنية بصورة ما كنا بصدد القيام به كفريق صحفي، من رصد لهذه الظاهرة، علمًا بأننا سنأخذ كامل التدابير لإعادة الطفل إلى ذويه»، ثم في نهاية الفيلم، قام الفريق فعلاً بإعادة الطفلة إلى منزلها، وسط دهشة الأم وارتباكها.

في حالة مختلفة، أبلغت الجزيرة عن مزرعة القنب الممنوع خشية على حياة العامل الفيتنامي الذي استضافته في فيلم «العبودية الحديثة في بريطانيا»، وتركت للأمن حرية التعامل معه كضحية أو كمجرم.

التشهير وحق الرد

يجب التأكد من عدالة وكمال المعلومات قبل إلقاء تهمة على أحد، كما يجب امتلاك وثائق الإثبات بين يديك، وإذا ما طلبتك المحكمة لقضية تشويه السمعة، فاعرضها غير منقوصة، واستثمر فرصة جلب الخصم لنفسه إلى ساحة القضاء. كما فعل منتقدو شركة ماكدونالدز، حين رفعت عليهم قضية في بريطانيا.

هنا تأتي جدوى التدقيق في مضمون التحقيق، وإعطاء حق الرد للأطراف الواردة فيه، خاصة المتهمين، والمذكورين بشكل سلبي.

قد يحرص البعض على تعطيل الفيلم، لكن هذا بكل الأحوال أخف من تجاوز حقّهم في الرد والتوضيح.

كم مهلة انتظار الرد؟ ما من فترة زمنية ملزمة. وحسب سياسات القناة الرابعة البريطانية فهذا يعتمد على مستوى خطورة وتعقيد الادعاءات. ومدة العمل بالتحقيق، فالفيلم الاستقصائي الذي تقضي فيه شهورًا يفترض أن يتفهم منح جهة الرد فترة أطول. كذلك نوع الجهة المتهمة، فالفرد العادي يحتاج وقتًا أطول من المؤسسة التي لديها الإمكانيات.

وعليه، حين ترسل طلب الرد لطرف محدد، تضمّنه المدة التي تقدّرها، وتعرّف بجهة إنتاج وبث الفيلم، وتوضّح المعلومات الخاصة به الواردة في فيلمك. ثم تبرز توضيحه بالفيلم بكل أمانة، أو تؤكد عدم رده حتى تاريخ بث الفيلم.

انتبه، اتهام ضيوفك لجهات أو شخصيات أخرى، وتشويه سمعتهم، أنت مسؤول عنه، طالما عرضته في الفيلم. وقانون التشهير ونشر المعلومات الكاذبة بنية خبيثة، يختلف من دولة لأخرى، ويرقى إلى الجريمة الجنائية في بعض الدول.

واجهت الجزيرة صاحب مغسلة سيارات بما ذكره موظفوه من مخالفات بحقهم، في فيلم «العبودية الحديثة في بريطانيا»، ثم أرسلت تطلب منه ردًّا مكتوبًا لتعطيه حقًّا إضافيًّا بالرد؛ إذا ما اعتبر مقابلة المواجهة في الشارع غير منصفة له. ثم نشرت رد شركتي سيارات فولفو وكيا لتعاملهما مع المغسلة ذاتها، وموقفهما من التجاوزات التي تصنّف في دائرة استعباد البشر.

التعامل مع الضحايا

يستدعي العمل التحقيقي إجراء لقاءات مع شخصيات ضعيفة، أو جريحة نفسيًا، بسبب ما تعرضت له من أزمات أو اعتداءات جسيمة، بغرض تحقيق المصلحة لها وللمجتمع.

هذا يتطلب حساسية مضاعفة في التعامل مع أهل المغدور، أو من فقدوا بيت العمر، نتيجة الزلزال الذي وقع قبل ساعات من المقابلة.

سعي الصحفي خلف السبق يجب ألا يذيب إنسانيته. لذا يفضل أن يطلب لقاء الضحايا من خلال وسيط قريب منهم يمهّد لذلك، كما يعطي الشخصيات حق استكمال المقابلة، أو التوقف، أو التراجع عن نشر التحقيق في كل أوقات الإنتاج، وما بعد الإنتاج.

الحلقة الخامسة من برنامج «جرائم المحيطات»، استعان المقدم بصحفية محلية لتجري مقابلات مع الرجال من أسر الضحايا، ثم قابلت والدة الضحايا بعد تأكيد هوياتهم. ذهبت إلى الشخص الأقوى، ولم تذهب إلى الأم للتعرف على هوية أبنائها المغدورين، لم تعرض عليها مشاهدة الفيديو المؤلم.

خصوصية المتأثرين والمؤثرين

يراعي الصحفي المحترف إخفاء هوية المتأثرين بموضوع التحقيق، خاصة إذا تعلق الأمر بنساء متضررات من جرائم الجنس والاستعباد.

قد تكون ضحية الاغتصاب مستعدة للظهور، هنا تقيّم مع نفسك الفائدة والضرر، وليكن الميزان أن تغلّب ما ينفع الضيف، لا ما ينفعك.

كما يجب أن يفكر الصحفي جديًّا بجدوى كشف هوية الشخصيات المؤثرة في موضوع التحقيق.

القاعدة؛ لا تعرّض سمعة وحياة الشخصيات للخطر بمجرد الشك. نحن هنا لا نتحدث فقط عن إخفاء هوية البشر، وإنما أيضًا العناوين الدقيقة لمناطق سكنهم، وأرقام السيارات والهواتف والحسابات..

هوية الأطفال

هوية الأطفال في التحقيقات الاستقصائية مقدّسة، ولا ينبغي التهاون في إظهار ملامحهم، حتى لو شكّلوا لبّ القصة.

فيلم «أطفال تنظيم الدولة» ضمن برنامج «فرونت لاين»، أخفى هوية الأطفال الذين قابلهم.

كذلك فعل فيلم BBC «خلف جدران الصمت»، حين أخفت الصحفية حنان خندقجي هوية جميع الأطفال الذين تمارَس ضدهم تجاوزات صادمة، في بعض دور الرعاية الخاصة في الأردن.

كما أن ظهورهم في التحقيق ـ وخاصة المصوَّر منه ـ يجب أن يخضع لموافقة مكتوبة من الأهل، أو ولي الأمر، أو الجهة المعنية برعايتهم بشكل قانوني. وإذا كانت الفرضية لها علاقة بتعدّيات الأهل على الطفل، فيجب إيجاد جهة قانونية تشرّع تناول الموضوع، ومقابلة الأطفال.

مقابلة المعتقلين

يعاني المعتقلون ظروفًا خاصة، هذا ما يجب أن يتفهّمه الصحفي، ولا يجعل التفرد الإعلامي يعمي بصيرته. عليه أن يتأكد قبل المقابلة الصحفية، وخلالها، من عدم وجود تهديد على المعتقل، وأن المقابلة لم تتم بالقوة.

عام 2018، غرّمت هيئة مراقبة البث البريطانية (أوفكوم) قناة العربية مبلغ 120 ألف جنيه إسترليني، لخرقها خصوصية المعتقل البحريني المعارض حسن مشيمع، حيث عرّفته كفرد في خلية إرهابية أثناء مقابلتها له في تقرير عن المظاهرات في البحرين. إلا أن مشيمع أكد أن المقابلة أجريت معه تحت ضغط التعذيب.

مطالب الشخصيات

لا ينبغي أن يخضع الصحفي لشروط المصادر، وفي ظروف معينة قد تطلب جهة معينة مشاهدة الفيلم قبل بثه، ارفض ذلك جملة وتفصيلاً. أما من يطلب تسجيلاً لمقابلته للاحتفاظ به؛ ففي أضيق الحدود يمكن أن توافق. حقّه أن يحتفظ بتسجيله، وحقّك أن تستخدم منه ما تشاء، دون تجزئة الحقيقة بما يحرّف المعنى.

حقوق الملكية الفكرية

تتضاعف أهمية حقوق التأليف والنشر في التحقيقات التي خلقت من أجل الدفاع عن الناس. فالحذر من عدم الحصول على موافقات ضيوف المقابلات، بما يمنحك حق التصرف في مادة التصوير.

كذلك، احصل على تنازلات رسمية من مالكي حقوق المواد التالية: الوثائق | الأرشيف | الصور الفوتوغرافية | الإصدارات الثقافية | الإنتاجات الفنية والموسيقية | براءات الاختراع | العلامات التجارية | التصاميم والرسومات | الأسرار التجارية.. وهذا ينطبق على مواد شبكة الإنترنت، وموقع يوتيوب.

حقوق الطبع والنشر تنشأ تلقائيًّا، وتكون محميةً للمصدر الأول، حتى وهي غير مسجلة. وإن كان تسجيلها يزيد من جرم انتهاكها الذي يختلف من دولة لأخرى، ويخضع لقانون بلد الانتهاك. وإذا بُث الفيلم المخالف على الإنترنت، فهذا يعني تعدد دول المطالبة القانونية؛ حسب جنسيات مالك الموقع، ومنتج ومخرج الفيلم، وصاحب الحقوق، ودولة الخادم التقني (السيرفر).

بعض الأعمال الفنية، كالمقطوعات الموسيقية والأغاني، يشترك في حقوقها أكثر من طرف، وبالتالي يجب الحصول على تصريح استخدام من المنتج والمؤلف والفنان والملحن.

دائمًا؛ عرّف المصدر، ومصدر المصدر إن كنت قد استقيته من وسيلة إعلامية أخرى. لا تقابل سائق الوزير، وتقول صرّح الوزير الفلاني.

وعند التصوير في الأماكن العامة، امنح الجمهور الحق في قرار الظهور أو الابتعاد. يفضّل أن ترفع لافتة تشير إلى وجود كاميرا. في فرنسا مثلاً، يملك المواطن حق مقاضاتك إذا صورته في مكان عام دون موافقته.

ممنوع من النشر

يقيّم الصحفي الواعي كل معلومة تقع بين يديه، فنشر الوثيقة أو المعلومة دون إخضاعها للدراسة كمن يقود السيارة وهو أعمى.

نشر الوثائق التي تخص الأمن القومي، والتحقيقات الأمنية غير الكاملة، قد تضرّ بمجتمعك ودولتك.

وهنا، نفرّق بين نشر الوثيقة السرية الممنوعة من النشر، التي وقعت للتو بين أيدينا، وبين نشر مضمون هذه الوثيقة، مع تمتّع الصحفي بحق إخفاء المصدر.

إعادة التمثيل الدرامي

تستوعب الأفلام الوثائقية الاستقصائية إعادة تمثيل اللقطات، على أن تستخدم ضمن فلسفة تعويض النقص، وتوضيح ما لا يمكن توضيحه إلا بهذه الطريقة، وبأقل ما يمكن داخل الفيلم.

يجب أن تلتزم الدراما حرفيًّا بشروط الفترة الزمنية التي وقعت فيها الأحداث، وبالتالي تدقّق تفاصيل العناصر التي سيتم عرضها، من قبيل الملابس والإكسسوارات والسيارات وغيرها. حين أعاد برنامج «الصندوق الأسود» تمثيل مشهد اغتيال الزعيم اللبناني كمال جنبلاط، حرص على توفير السيارة المشابهة تمامًا، بالموديل واللون وسنة ومنشأ الإنتاج، لتلك التي كان يستقلّها، والأخرى التي استخدمت في إطلاق النار.

توظّف لقطات إعادة التمثيل بشكل موضوعي وفني مناسب في سياق الفيلم، ويفضل تمييزها كلقطات غير حقيقية، والإشارة بوضوح إلى ذلك.

التعاملات المالية

جزء كبير من التحقيقات الصحفية يتعلّق بالمال، وما يحوم حوله من فساد وشبهات، فالصحفي يتفهم خطورة التعاملات المالية، ويحرص أن يبتعد قدر الإمكان عن أي مصدر يطالب ببدل مالي مقابل معلوماته، أو وثائقه الحصرية. وفي حالات استثنائية، يمكن أن يدفع مبلغًا ماليًّا لوسيط يوصله إلى العصابة، ولا يدفع أبدًا لعصابة.

وفي حالات المقابلات التي يطلب ضيوفها مقابلاً ـ مغريًا كان أو عاديًّا ـ يجب مراجعة سياسات المؤسسة الصحفية تجاه المقابلات المدفوعة، وشروطها وأحكامها، وكذلك مراجعة موقف الشخصية، وتطبيق معايير المصدر المثالي.

المكاسب الشخصية

بين عملك والنتائج التي تصل إليها أمور مشتبهات، ونجاحات الصحفي وشهرته قد تسيل لعاب جهات تسعى لشراء ذمته.

الهدايا، وتكريمات المهرجانات والمؤسسات المشبوهة بحاجة إلى مراجعة، بعضهم قد يمنحك وسام الشرف راغبًا بشراء شرفك المهني، أو استبدال معاملتك مثل كبار الشخصيات (VIP) بمنفعة لاحقة.

كما قد يتيح العمل الاستقصائي معرفة أسرار مفيدة للصحفي نفسه، فهل يستثمرها في مشاريع تجارية، ومنافع شخصية؟ ربما تستقطب نجوميتك أصحاب العلامات التجارية، فهل أنت جاهز للترويج لسلع استهلاكية؟

كل ما فيه تَعارضُ مصالح، ويمكن أن يؤثر في مسار عملك التحقيقي، مرفوض.. لا تسمح بعرض نزاهتك في السوق.

الأفلام والمشاهدات

1. الفيلم الروائي «مارك فيلت.. الرجل الذي أسقط البيت الأبيض»، بيتر لانديسمان.
2. «ماذا قتل عرفات؟»، وحدة تحقيقات شبكة الجزيرة.
3. «الرحلة 1103»، برنامج «الصندوق الأسود»، الجزيرة.
4. «وثائق بنما»، برنامج «كنت هناك»، قناة العربي.
5. «تايتانك بعد 20 عامًا»، ناشيونال جيوغرافيك.
6. «الخط الأزرق الرفيع»، إيرول موريس.
7. «مخبر القاعدة»، وحدة تحقيقات شبكة الجزيرة.
8. الفيلم الروائي «كل رجال الرئيس»، ألان جاي باكولا.
9. الفيلم الروائي «ذا بوست»، ستيفن سبيلبرغ.
10. «رواتب القطاع العام.. الأرقام»، برنامج «بانوراما»، BBC.
11. برنامج «جرائم المحيطات»، ناشيونال جيوغرافيك.
12. «إجراءات العمل الاعتيادية»، إيرول موريس.
13. «إلى جناب السيدة رئيسة الوزراء بينظير بوتو»، عمر أميرالاي.
14. «قوارب الصيد» (Drifters)، جون جريرسون، عام 1929.
15. «نانوك رجل الشمال»، روبرت فلاهرتي، عام 1922.
16. «الرجل ذو الكاميرا السينمائية»، ديزيغا فيرتوف، عام 1929.
17. «فهرنهايت 11/9»، مايكل مور.
18. «اليمن.. الأموال المنهوبة»، برنامج «الصندوق الأسود»، الجزيرة.
19. «جواز سفر للقتل»، برنامج «بانوراما»، BBC.
20. «داخل اليمن»، برنامج «فرونت لاين»، PBS.

21. برنامج «أطباء تحريون» أو «تحقيقات طبية».
22. برنامج «تحقيقات الكوارث الجوية»، ناشيونال جيوغرافيك.
23. برنامج «نهايات غامضة»، الجزيرة.
24. برنامج «فاسد» (Rotten)، نتفليكس.
25. برنامج «أسرار التاريخ»، ناشيونال جيوغرافيك.
26. برنامج «ما قبل الكارثة»، ناشيونال جيوغرافيك.
27. برنامج «داخل أقسى سجون العالم»، نتفليكس.
28. «عبرا.. من أطلق الرصاصة الأولى؟»، برنامج «ما خفي أعظم»، الجزيرة.
29. «شاحنة الموت»، برنامج «الصندوق الأسود»، الجزيرة.
30. «إكاروس» (ICARUS)، نتفليكس.
31. «الكوليسترول، المطلوب رقم 1»، CBC.
32. «مقتل بافل» (Killing Pavel)، مشروع الإبلاغ عن الجريمة المنظمة والفساد.
33. «باص 174»، جوسيه باديلها.
34. «جريمة في إسطنبول»، برنامج «عن قرب»، BBC.
35. «عملية بلاك هوك داون»، «حتى آخر جندي»، ناشيونال جيوغرافيك.
36. «سقوط الصقر الأسود»، «ما قبل الكارثة»، ناشيونال جيوغرافيك.
37. «عبيد الموضة»، أنتوني روبن وسباستيان ديردلي.
38. «أثير الكراهية»، برنامج «عن قرب»، BBC.
39. «حلايب.. المثلث الأصفر»، برنامج «المسافة صفر»، الجزيرة.
40. الفيلم الروائي «سبوت لايت» أو «بقعة ضوء»، توماس مكارثي.
41. «تجار الحرب»، شبكة (أريج) وتلفزيون DW.
42. «حرب الديمغرافيا»، برنامج «الصندوق الأسود»، الجزيرة.
43. برنامج «مدينة الاحتيال»، ناشيونال جيوغرافيك.
44. «سوبر سايز مي» (Super Size Me)، مورغان سبورلوك.

45. «الجنس والفاتيكان»، برنامج «بانوراما»، BBC.
46. «دوغما: الزر»، بول ريفسدال.
47. «كتائب القسام»، برنامج «في ضيافة البندقية»، الجزيرة.
48. «فيروسات دبلوماسية»، قناة الميادين.
49. «كردستان.. رهان الاستفتاء»، برنامج «ما خفي أعظم»، الجزيرة.
50. «سرايا القدس»، برنامج «في ضيافة البندقية»، الجزيرة.
51. «تاريخ للبيع» برنامج «سري للغاية»، الجزيرة.
52. «تحت الشمس»، فيتالي مانسكي.
53. برنامج «الساعة صفر»، سنيفلكس برودكشنز.
54. «مولينبيك في الزاوية»، سهيم عمر خليفة.
55. «أطفال إسبانيا المسروقين»، BBC.
56. «أصدقاء ترمب الجدليون»، برنامج «ZEMBLA»، قناة VARA.
57. «حدكا.. عودة البندقية»، برنامج «المسافة صفر»، الجزيرة.
58. «الساحر الذي سرق البنك»، برنامج «عن قرب»، BBC.
59. «التاريخ السري لتنظيم الدولة»، برنامج «فرونت لاين»، PBS.
60. برنامج «ملفات محيرة»، ناشيونال جيوغرافيك.
61. سلسلة «اللوبي الإسرائيلي في بريطانيا»، تحقيقات شبكة الجزيرة.
62. «العبودية الحديثة في بريطانيا»، تحقيقات شبكة الجزيرة.
63. «يحدث في العراق»، برنامج «للقصة بقية»، الجزيرة.
64. «أطفال تنظيم الدولة»، برنامج «فرونت لاين»، PBS.
65. «خلف جدران الصمت»، برنامج «عن قرب»، BBC.
66. «مقتل كمال جنبلاط»، برنامج «الصندوق الأسود»، الجزيرة.

المصادر

1. الدليل التدريبي للصحافة الاستقصائية، (اليونسكو).
2. موقع الشبكة العالمية للصحافة الاستقصائية (GIJN).
3. موقع هيئة الإذاعة البريطانية (BBC).
4. مواقع ومنصات شبكة الجزيرة على الإنترنت.
5. موقع ناشيونال جيوغرافيك.
6. كيف تصنع فيلمًا وثائقيًّا؟، إياد الداود.
7. موقع منظمة ويتنس (Witness).

معهد
الجزيرة للإعلام

AJMInstitute

+974 44897666
institute@aljazeera.net
http://institute.aljazeera.net/ar